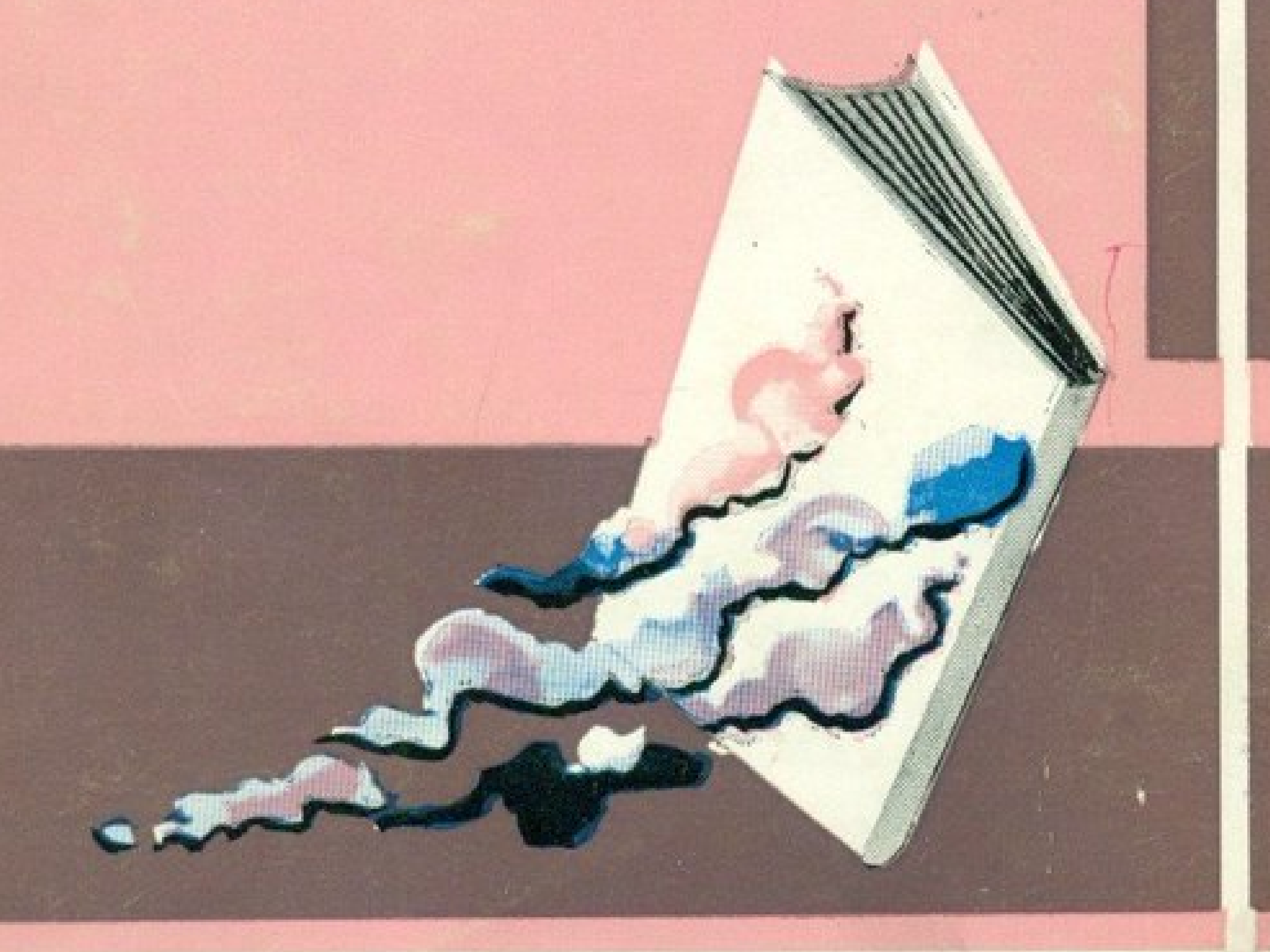
محمد المجذوب

قصص من سورية



دار العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

محمد المجذوب



دار العربية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه صور قد يكون أكثرها قاتماً ولكنها صادقة ، لانها انعكاسات الواقع الذي نعيشه ويعيشه الناس من حولنا ؛ وقد ألفه الجميع حتى أوشكوا الا يشعروا به . وهل حياتنا في هذه البقعة من ديار العرب سوى مأساة كبيرة ؛ لكل منا دوره في فصولها !؟

انها صور المظلومين والظالمين ، والحارمين والمحرومين ؛ ولو فتح أحدنا عينيه جيداً لما أبصر غير هؤلاء وأولئك .. ولرأى نفسه واحداً من هؤلاء أو من اولئك ..

واذا كان الاحساس بالواقع المضطرب هو الحافز الأول لتصحيحه ، فمن حق هذه الصور ان تمد المصلحين بما يضاعف من رغبتهم في تحقيق مهمتهم ..

فالى هذه العصبة المؤمنة المجاهدة لتغيير الواقع الفاجع أهدي هذا الكتاب .

اللاذقية — سورية ١٩٥٨ م	محمد المجذوب

هذه الطبعـــة

نشرت الطبعة الأولى من هذه المجموعـة قبل اثنتي عشرة سنة ، وكان عنوانها آنذاك (فارس غرناطة وقصص أخرى) والآن أقدمها الى القارىء في طبعتها الثالثة بعنوان : « قصص من سورية » لسببين : الأول أن الطابـــع الرئيسي للقصص سوري محض والثاني : تجريد المجموعة من القصة التمثيلية التي كانت تحمل اسمها (فارس غرناطة ..) ذلك لأني رأيت أن أضم التمثيليات التي كتبتها جميعاً في مجلد واحد أرجو أن يجد طريقه الى النشر عما قريب ..

هذا وقد أضفت الى القصص اثنتين بدل التمثيليـــة هما : (أبو طاقة) و (المـــاء المسحور) وكانتا قد نشرتا في أول مجموعة قصصية قدمتها للقراء قبل ثلاثين سنـــة بعنوان : (قصص من الصميم) وذلك لأنني ، مع رضاي عن فنية هذه القصص الأولى ، لم أعد راضياً عن موضوعاتها التي سبقت عهد استقراري الفكري .

فالله أسأل أن يجعل في هذه الطبعـــة الجديدة شيئاً ممتعاً صالحاً يرضيه وينفع قارئه .

المدينة المنورة ـ رجب ١٣٩٠ هـ المؤلف

مَع الموتِ

كان الليل قد بدأ يزحف ، ولم يكن زحفه مفاجئا ، فالشمس محجوبة منذ مطلع النهار ، والفضاء متدج بالسحاب المتراكم يرسل ماءه متتابعا في اطراد . وقد غاب كل شيء وراء غلالة من الكآبة المثيرة ، فكأن الزمن كله ليل مستمر ، فلما أقبل المساء لم يقبل على حين غرة ، ولم يعمل سوى ان ضاعف من كثافة العتمة الزاحفة ..

وكانت الريح منطلقة بدورها تهاجم النوافذ المغلقة بصفير مخيف كأنه إنذار بمعركة ، لذلك كان طبيعيا أن يأوي أكثر الناس الى دورهم مبكرين ، وكان على (فخرية) ان تنهي هذه الزيارة الطويلة ، بالعودة الى دارها ، ولكن الجار القديم الكريم (أبا غازي) يأبى عليها الذهاب ، ويلح بأن تقضي الليلة عندهم مع أولادها ، فالدار بعيدة والمطر متواصل وان كان خفيفا ، والهواء بارد عاصف قد يزعج الاطفال أثناء الطريق ، وزوجها غائب في بيروت ، فليس يضيرها أن تفارق دارها هذه الليلة .

ويظهر أن (فخرية) قد رأت فكرة أبي غازي مقنعة ،

فترددت طويلا بين الذهاب والبقاء •• ولعلها كانت أميل الى المبيت حيث هي ، وهي تعلم ان هذه الاسرة لا تضيق بمقامها بل يسرها ذلك ، فالصلة بين البيتين قديمة ، وهي مفعمة بالود الكريم •• وشيء آخر كان يحوك في صدرها فيجعلها أشد رغبة في البقاء ، ذلك ان عدوى الكآبة قد سرت من الطبيعة الى نفسها ، فاذا هي قلقة مضطربة منقبضة ، دون أن تعلم لذلك سببا •• على أنها كانت مدفوعة بما لا تدري الى التفكير بزوجها العامل في بيروت، وبابنتها الكبرى (مديحة) التي سبقتها الى الدار لتهيء دروسها في عزلة عن ضجيج الأطفال • وما إن تتذكر وحدتها في الدار حتى يتضاعف اضطرابها • فهي تعرف انها تخشى الظلام وتخاف الوحدة ، وها هو ذا الليل يزحف ويزحف ، فلا بد لها اذن من الاسراع في العودة •• واذا هي تضيق صدرا بكل ما تجده من اكرام لدى هؤلاء الجيران ، وتود لو يدفعونها بايديهم دفعا الى الخارج•• وكان عليها أخيرا أن تقطع بالأمر ، فاذا هي تنهض فجأة لترتدي ملاءتها ، وتحكم صيانة أطفالها الأربعة من الهواء والمطر ، ثم تنحدر على سلم الدار مسرعة في طريقها الى البيت، وهي تلقي على القوم تحيتها دون أن تعير رجاءهم أي اهتمام ••

ولحق بها أبو غازي يعرض عليها ان يأتيها بمديحة ،

ولكنها أصرت على الرفض ، فليس الموضوع موضـــوع مديحة وحدها فقط ، بل أيضا موضوع (فؤاد ••) زوجها الذي سيقدم الليلة حتماً ، فغداً يوم عطلته الاسبوعية ، وقد اعتاد أن يقضيها بين زوجه وأولاده، فليس من الخير أن تدعه يضرب هنا وهناك بحثا عنهم ••

ومضت فخرية وأولادها يغالبون الريح العاصفة ، والمطر المتتابع ، وكانت الأسواق لا تزال غاصة بالكثير من الناس الذاهبين الى بيوتهم ، ولما أشرفت عــــلى جسر (السويقة) وجدت مشقة غير قليلة في اجتيازه الى دارها القريبة بين زحام المارة من نساء ورجال ••

ولمع في عين فخريـــة ضوء السراج يطل علـــى النهر الهادر من نافذة غرفتها الرابضة منذ مئة عام أو يزيد على جانب هذا النهر ، وقد تسربت أضواء أخرى من المساكن المرتفعة فوقه فاستراح خاطرها قليلا اذ وجدت نفسها على مقربة من ابنتها المنتظرة ••

ولم تستقر الا ريثما أراحت أبناءها في أمكنتهم ، ثم أخذت باعادة ترتيب غرفتها ، فأحكمت اغلاق البـــاب الخارجي ، وجعلت تمسح هنا وتكنس هنا كوترتب هذا وهـــذه ••

وكانت حنان الصغيرة قد طلبت اليها شيئا من الحلوى

المنزلية فأقبلت في نشاط تصنع ما يكفي الجميع ..

وبعد قليل أخذت مكانها بين أبنائها الخمسة على الحصير ثم أقبلت على التلاميذ منهم توجههم الى دروسهم. فيأخذ هؤلاء باعداد ما كلفوه في هدوء عجيب .. على حين استاقت حنان الصغيرة على حجر أمها غارقة في نوم عميق، وأخذت هناء الرابعة تتبع عمل اخوتها فتردد بعض كلماتهم دون أن تعي منها شيئاً .

وفجأة طرق الباب الخارجي ، فحسبت لأول وهلة أن الطارق فؤاد ، ولكنها سرعان ما انتبهت الى نوع الضربات فقد كانت شديدة وسريعة ، فأيقنت أن الطارق شخص آخر .. وسألت من مكانها : من الطارق ؟؟

وجاءها الجواب : أنا جاركم حسن .. جئت أنبهك الى أن ماءالنهر سيرتفع الليلة . فحافظي على أثاث بيتك .. هل تريدين خدمة ؟!

وعرفت فخرية من الصوت شخصية الرجل ، انه جارهم الحمال الطيب أقبل ينبه جيرانه للتحفظ من ضرر النهر المعتاد .. ولم يكن في وسعها أن تستغني عن خدمة الرجل فطلبت اليه ان يتريث قليلا ريثما ترفع أبناءها الى التختة العليا ، وأخذت ملاءتها ثم فتحت له الباب راجية

أن يرفع لها بعض الأثاث الى فوق، ولم تنس أن تطلب اليه أن يضع الخوان في وجه الخزانة الزجاجية العزيزة على زوجها وفيها عدته وحاجاته المفضلة ..

وغادر الرجل البيت مشيعاً بالثناء والدعاء ليتابع عمله في تنبيه الجيران الآخرين ..

وسكنت الاسرة المسكينة الى مأمنها الاعلى مطمئنة ، لا يقلقها إلا الخوف على ما بقي من أشياء في الأسفل ، مما لم يمكن نقله ..

وحانت من مديحة التفاتة الى النافذة المفتوحه ، يهب منها الهواء مداعبا فتيلة المصباح المؤنس ، فاقترحت على أمها أن تعمد الى اغلاقها ، ولم تر هذه بأساً في تحقيق ذلك فقامت الى النافذة تتعاون وابنتها على إحكام ربطها بخبط من المعدن العتيق ، ولكنها ما كادت تستقر في مكانها حتى لاحظت رشحاً من الماء يتقاطر من أعلى السقف ، فشكت الى الله أمر هؤلاء الجيران الذين يسرحون مياههم حتى في الليل دون أن يعبثوا بأثاث جيرانهم ..

ونهضت تعالج هذا الرشح بخرقة كبيرة ، ولكنه ما كان لينقطع ، ولم تمض سوى فترة يسيرة حتى أخذ الماء يتسرب من مختلف أنحاء الجدران الأربعة ، وما هي إلا

لحظات حتى غرقت أرض التختية العليا نفسها ..

وحتى ذلك الوقت لم يكن ليخطر في بال الأم وابنتها شيء مخيف ، واكتفى الجميع بأن يتفادوا هذا الماء باللجوء الى السرير ، ولكن دويا عميقا كان يترامى على اسماعهم من خلال النافذة المربوطة ، بدأ بعيدا عميقا ، ثم جعل يشتد ويقترب حتى أوشك أن يطغى على صوت الأطفال !.

وتقدمت مديحة نحو النافذة تحدق في ما وراءها ، وبالرغم من الظلمة الطاخية أخذت عيناها منظر التماع الماء قريباً جداً .

ـ أماه ..! انه النهر يوشك أن يجرف الغرفة ! »

وأسرعت فخرية تنظر الى النهر فاذا هو مواز لزجاج النافذة ، ثم اذا هو متدافع الى الأعلى فالأعلى يتهادى في جبروت رهيب ..!

وبدأ الماء يتدفق من خلال النافذة ، وجعل ينساب من فجوة التختية الى الحجرة السفلى ، وهنا أيقنت المرأة بالخطر الداهم ، وكادت تستسلم الى صدمة الخوف ، وتحرك لسانها لينطلق بالصراخ .. ولكن قوة قاهرة خنقت الصوت في حلقها ، وجمدت قليلا كأنها تفكر بما يجب ..

هذا نهر أبو علي يتصاعد عاتيا صاخبا مدوِّياً متتابع الارتفاع، كأنه يريد أن ينال السماء ، وذلك هو المطر يمده من فوق بالدفق المستمر كأنه يستعجل دفعه أو يحاول ردعه ..

وهذا فضاء القسم الاسفل من البيت قد امتلأ بالماء حتى شرع يقتحم البقية الباقية من الفضاء الأعلى ..

الماء من فوق ، ومن تحت، وعن يمين وشمال.. فأين المهرب وأين النجاة !!

لقد خرج (أبو علي) عن وقاره القديم ، وأقبل الساعة كالوحش المسعور يفتح فاه الضخم ليبتلع جيرانه ، جيرانه المساكين ، الذين لجئوا الى كنفه هرباً من ظلم الأقوياء ، الذين احتكروا جنبات الأرض ، فلم يدعوا لفقير مكاناً منها يغرز فيه وتد خيمة ، أو يقيم فيه أساس غرفة..

يا لَحظ هؤلاء المساكين..! حتى هذا النهر البار قد ضاق بهم اليوم ، فاستعدى عليهم السماء والجبال ليطهر الأرض من آثارهم .. كأن لم يبق في الأرض من يشوه صفحة الحياة سوى هؤلاء المساكين !..

وفي لمحات خاطفة جعلت ذاكرة فخرية تتفتق فيتتابع

شريط صورها المخزونة ، فيها السار ، والكئيب ،وفيها الماضي البائس الذي بدأ منذ وفاة والدها ، وهي في الثانية من عمرها الأسود ، ثم لم يقف حتى الساعة ..

أهكذا قضي عليها أن تواجه الحياة باليتم ، ثم تودعها بأوجع من اليتم !!

وإذا كان في حياتها من ذنب تستحق من أجله هذا المصير ، فما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء !.

وبرقت السماء بلمع شديد ، تدفق كالقضبان النارية من شقوق النافذة ، ففطنت فخرية الى موقفها ، وكأن يداً سحرية مرت على صدرها فاذا هي مخلوق آخر .. لقد تذكرت انها ليست وحدها هنا .. ان معها أطفالها الأبرياء ، يرسلون زعقاتهم من أنحاء الغرفة ، راكضين من مكان الى آخر ، وان على ذراعيها هذه الصغيرة التي انسكب عليها النوم فلا تعي شيئاً مما حولها ..

وأخيراً .. ان معها الله الذي تخضع لقوته كل هذه القوى الداهمة من السماء والأرض ..

وخيل اليها انها لم تكن قط أقرب الى الله منها في هذه اللحظة .. وحسبها من ذلك قوة ترفع طاقتها النفسية الى القمة ، وتتضاءل بجانبها كل قوة الى ما يشبه العدم ..

لا شك انها محنة ولكنها محنة يبتلي الله بها صبر المؤمنين، فما عليها إلا أن تلوذ به وحده ، وقد انقطعت عن كل عون ما عـــداه ..

وتحركت قوة النفس المؤمنة الجبارة لتكافح ..

ولمحت فخرية خزانتها العزيزة تتهادى بجانب الجدار كأنها تريد أن تنقض ، فأقبلت تسندها ، وهي تدفع بأبنائها الى أعلى الواجهة المجاورة المتحدة بالجدار .. ولكن دفعة قوية من الماء أكبت الخزانة على صدر فخرية فاذا هي غارقة تحتها ، وقد انقذفت طفلتهـــا الصغيرة مـــن ذراعيها الى اخضان الماء ..

وانطفأ المصباح الهزيـــل بهويّ الخزانة فاتحد الماء والظلام على الغرفة الغرقى .

وغاب وعي الأم قليلا ، تحت اللجة ، وكادت تفقـــد الشعور بالواقع ، ولكن ما هي إلا لحظات حتى وجـــدت نفسها قائمة وكأن يداً خفية دفعتها الى القيام ، وسمعت زعيق الأولاد من جديد يتساءلون : أمي .. أين أنت !!

وكأن شيئا لم يحدث ، فأجابت : « أنا هنا يا بَني .. خديجة .. سلوى .. حنان .. خالد .. تشجعوا .. أذكروا الله . »

وفي لحظات استحالت الغرفة المظلمة الى معبد من نوع جديد .. معبدلا وجود فيه إلا لله .. ولا رجاء فيه إلا من الله ..

ودوّت الجدران بزئير الماء .. وأصوات الدعاء .. وانطلقت الأفواه الخمسة تتلو آيات القرآن ، وذكر الرحمن .

وكأنما الكلمات الربانية قد تحولت أنواراً مشعة سرعان ما فعلت فعلها في النفوس .. فاذا هي هادئة مطمئنة واعية لكل ما حولها ، ولكنها مستصغرة لكل ما حولها .

وكان الماء قد وصل الى ما فوق سطح الواجهة الثابتة واصبحت يد الأم تتحسس أخشاب السقف ، وهي راكبة على أحد ألواح الخزانة المحطمة ، وما هي سوى دقيقة أو اثنتين حتى كانت تمس برأسها السقف نفسه ..

ولم تنقطع (فخرية) عن مخاطبة بنيها لتطمئن على وجودهم .. انها تريد أن تعرف أين هم .. وبأي شيء يتعلقون .. وما أشد سرورها حين علمت ان تحت كل منهم لوحا من الخزانة ، الخزانة التي كانت تريد المحافظة عليها سليمة فاذا هي تأبى إلا ان تهوي وتتحطم لتقدم لكل من الخمسة طوفه الرحيم .

ولا غرابة في ذلك ، أليست فخرية مطمئنة ان الله معهم !.

وأخذت الأم تكرر نداء أبنائها كلا بمفرده ، فتسمع جواب الأربعة الباقين .

وبدت آثار التربية الكريمة بارزةقوية في هذا الموقف، ووجدت فخرية ثمرة جهودها في هذه الطاعة العجيبة ، يستقبل بها أطفالها الغرقى كل اشارةمنها بالقبول والتنفيذ.

لقد طلبت اليهم أن يكفوا عن الصراخ فكفوا ، ثم طلبت اليهم ان يذكروا الله فذكروا ، ولكنها لا تستطيع أن تكف دموعها ، كلما سمعت طفلها الصغير خالدا يوجه اليها هذه الكلمة الكبيرة : « المهم أن تبقي أنت يا أماه .. حافظي على نفسك .. أنا بخير .. »

وارتفع صوت مديحة يسأل : « أماه .. كيف هناء !. اني لا أسمع صوتها .. ألا تزال نائمة !! »

وما كان في وسع فخرية أن تكشف للاطفال سر صمت هناء .. فتجيبها : « انها نائمة .. نائمة والحمد لله .. »

وفجأة انشق اللوح تحت مديحة ، فصاحت : « آه .. سقطت سلوى يا أمي ..! »

وتصبر فخريةعلى الصدمة.. فما كانت لتأمن أن يذهب الماء ببعض أولادها أو بهم جميعا ، لذلك أجابتها في هدوء :

« لا بأس ، الحمد لله .. حافظي على نفسك . »

ولكن مديحة تصيح مرة ثانية بفرح « لقد قبضت على شعرها .. ها هي .. لقد أخرجتها من الماء . »

وأحست الأم بالماء ينزل عن مستوى السقف ، فلم تتمالك أن تذيع هذه البشرى على الاطفال : « .. لقد بدأ الماء بالانحسار .. تماسكوا .. ان رحمة الله قريب .. »

وتضاعفت ثقة الام والأطفال برعاية الله ، فقد كانوا جميعا ينتظرون نهايتهم بين اللحظة والاخرى ، ولم يكن قد بقي بين الماء والسقف الا قيد أصابع ، وها هم أولاء يعودون الآن الى الحياة من جديد ..

وغيض الماء قليلا قليلا ، واستوت سفن الاسرة ساكنة على أرض التختية ، التي استحالت الى مستنقع كثيف من الوحل اللزج . وهنا اندفعت الأم نحو النافذة تطل على الماء الذي أخذ بالانخفاض ..

وتلوح أنوار البيوت المقابلة ، وقد امتدت منها الأعناق تنظر الى مأساة هذه الاسرة دون أن تستطيع لها عونا .. واهتزت الأم وبنوها لمرأى الناس ، فاذا هي تصيح وتصيح ، ولكن عبثا ..

لقد كان دوي الماء غالبا على كل شيء .. فليس

معقولا ان يصل الصوت الى الضفة المقابلة ..

وفجأة أغلقت النوافذ، وانقطع مرأى النور والناس.. وعادت الأم الصابرة تتفقد أولادها مرة بعد مرة .. وكأنها غير مصدقة ببقائهم . وفي هذه اللحظة أحست بالماء يعود الى خشب التختية ، ثم يستمر في الارتفاع شيئا فشيئا ..

وتراكض الأطفال الى ألواحهم كرة أخرى ، وعاد الدفق يرفعهم الى الاعلى ، حتى بلغ حدوده الأولى ..

وفي هذه اللحظة تعالى في الفضاء دوي لم يسمعوا مثله من قبل ، اهتزت له اركان الغرفة ، حتى أيقن الجميع بوشك انهيارها ، ثم ما لبث ان تبعه دوي آخر أشد وأقوى ، وتتابع الدوي من هنا وهناك بعيدا وقريبا ..

لقد أيقنت فخرية ان النهاية مسرعة ، ولن تكون هذه المرة بالاختناق الذي داعبهم بمخالبه قبل قليل ، ولكنها انهيار البناء جميعا ..

أو ليس هذا الدوي اعلاما بانهيار الجسر .. الجسر الذي يقوم على طرفه بيتهم الحقير هذا ؟! أو ليست الهزات الأخرى نتيجة انهيار الدور القريبة !! إذن فليس بينهم وبين العدم لا ان يأتي دور هذه الدار ..

وعاد السقف مرة ثانيـــة يضغط على رأسها ،وكأنه اشارة واضحة الى قرب الساعة ••

وارتفعت أصوات الأطفـــال والأم الى شأنهـــــا من التسبيح والتمجيد •• ولكن الماء بدأ ينحسر ••

وانه لانحسار سريـــع •• يصحبـــه صوت رهيب •• صوت الماء المنحدر بقـــوة •• وأخيرا •• ها هـــم أولاء يرجعون انى الطين الذي غمر سيقانهم في النزلة الأولى ••

* * *

حقا لقد تغير كل شيء الآن •• فالمـــاء قد تقلص عن التختية تماما بل تقلص حتى عن القسم الأسفل ، ولم يبق الا هذا الركام من الطين الذي غطى كل شيء ••

وها هو ذا النهر •• انهم يرونه جليا وقد تطامن بعد شموخ ، فكاد ينتهي الى حافاته الطبيعية ••

أحقا قضي الأمر وزال الخطر !••

وانطلقت أصوات الأطفال : « أماه •• انظري ••لقد زال الماء عن البيت •• »

وأجابت الأم متأثرة بفرحهم : « الحمد لله •• ألم أقل لكم ثقوا بالله ! »

ولكن قلب فخرية لم يكن قد اطمأن بعد الى مظهر النهر ، فقد يعود الى غضبته كرة ثالثة .. ان عليها ان تقف وبنيها على قدم الاستعداد لاستئناف الكفاح ، فليس من الحزم ان يؤخذوا على غرة ..

وكانت عيناها متجهتين بقوة نحو الضفة المقابلة،انها تحدق فلا ترى أثر ذلك الضوء الجميل الذي كان يطل عليها قبل ساعة من النوافذ العليا .. ولكنها لم تلبث ان ادركت الحقيقة المرة .. لقد زال المنزل برمته ، وزالت معه منازل عديدة ، فهي اذن تتجاوز بعينيها مكان هذه الدور الى الفضاء الأبعد ..

وأخذت المعالم تتضح لنظرها شيئاً فشيئاً .. حتى استيقنت من صدق تقديرها فصح ما توقعته من انهيار الجسر، وسقوط البيوت .. اذن فقد انشطرت طرابلس ،وأصبحت السويقة القديمة في عزلة عن البلد الجديد !

وهنا علمت فخرية أن مصيبتها لم تكن الوحيدة في تلك الليلة ، وان هناءها الصغيرة لم تكن الضحية الوحيدة في تلك الكارثة .. فكان من حقها أن تحس بعض العزاء ، لو أمكن لقلب الأم أن يتعزى في مثل هذه المحنة ..

على أن الخطر لم ينحسر بعد وان انحسر الماء ، فمن لهم بمغادرة هذا المكان الذي أصبح كالقبر لا منفذله !

وامتدت يدا فخرية تفك الخيط المعدني العتيق عن النافذة الزجاجية ، وتركت للهواء البارد أن يتسرب الى الجحر المظلم ، فأحس الجميع انهم قد عادوا الى الاتصال بالدنيا ، وفجأة أخذت أعينهم أشعة ضخمة من نور متحرك فأيقنوا أن هناك ناساً يبحثون عن بقية الضحايا •• ولم يتمالكوا أن أخذوا يصرخون ويصرخون ••

يا الله !•• كيف تستطيع هذه الأصوات الصغيرة أن نعبر الفضاء الى آذان الأحياء أ !!

لقد ضاعت الأصوات في عصف الهواء ، وكادت تبح، وهي كل ما يملكون من قوة في هذا الكهف الرهيب المغلق ••

وتماوجت الأشعة من الضفة المقابلة ، ووصلت هذه المرة الى نافذتهم قوية منعشة كأنها حبال الرحمة تتدلى من السماء ، ولم يتمالك الصغار أن يحاولوا لمسها بأيديهم كأنما يريدون أن يتعلقوا بها !••

وعرفت الأم أن عليها أن تعرض نفسها لموقع الأشعة ، فان وراءها حتماً عيونا تحدق • ومدت بنصف جسمها من النافذة وهي تصيح بكل ما تملك من بقايا القوة •

ولكن عبثاً •• لقد مر الشعاع وابتعد ، فما من شك

ان أحداً لم بشعر بوجودهم ، وكادت تيأس من أصحاب النور ، لو لم تسمع ابنتها مديحة تهتف بها : « انظري انه النور يأتي من هنا .. من الباب ! »

وانصرفت عينا الأم نحو باب الكهف ، فاذا أشعة ضئيلة تتماوج من خلال الشقوق .. واذا أصوات بعيدة تتسرب الى أسماعهم كأنها الهمس الخافت !. فهناك اذن رجال آخرون بفتشون عن أثرهم ، فعليها أن تساعدهم بارشادهم الى مكانها .

وانطلقت تصرخ من جديد ، حتى عجزت عن الصراخ، وتقدم كل من الأطفال يعينها بدوره ، حتى انتهوا الى مثل عجزها .. دون فائدة ..

وهنا كان عليهم أن يستسلموا الى العناية التي لم تنسهم حتى هذه اللحظة .. لقد بذلوا ما يملكون وانتهوا ، فما عليهم إلا أن يستمروا في صبرهم حتى يقضي الله أمره ..

انهم الآن كأجزاء هذا الطين الذي يتخبطون فيه ، لا قدرة لهم على شيء ، ولا ميزة لهم بشيء ، إلا ما يتردد في صدورهم من هذا النفس الذي يمسك عليهم الحياة ..

على ان الأمل كان كبيراً فالأنوار صاعدة هابطة ذاهبة آيبة ، وكفى بذلك دليلا على وجود الناس واهتمامهم

بالبحث عن أمثالهم ••

وما كانت « فخرية » لتنسى طفلتها « سلوى » التي انتشلت من الغرق ، انها تعاني الأمرين من المياه والأوحال التي تسربت الى جوفها وقد بدت في النفس الأخير ••

لقد جعلت تبذل لابنتها المحتضرة ما تعلمته في المدرسة من وسائل الاسعاف فيتدفق من جوفها بعض ما تضيق به •• غير غافلة عن رعاية البقية من الصغار •• فهي موزعة القوى بين هذه واولئك •• ولكنها واعية الذهن رابطة الجأش لا يفوتها من بنيها حركة ولا سكنة ••

وكانت عبنا مدبحة مسمرة ناحية الباب ، تراقب حركة الضوء الهزيل من خلال شقوقه •• وترهف سمعها الحاد الى كل هجسة من ورائه ، فاذا هي تصيح بأمها : « انهم يقتربون •• ألا تسمعين ! » •

وأخذت الحركة التي سمعتها تتضح وتقوى ، وما هي إلا لحظات حتى كان البا بيتحرك ، وسرعان ما فتح فاذا شلال من الماء يتدفق في طريقه الى القسم السفلي ، ولكنه شلال صغير لا رافد وراءه سوى هذه المياه التي تجمعت في مدخل الزقاق الضيق المنحدر اليهم ••

وتعالى صوت حسن : « هل هنا أحد !!•• »

وسرعان ما تلقى رد الأربعة بصوت واحد : « نحن هنا •• نحن هنا يا حسن •• »

ويا لروعة الرحمة !•• لقد كان حسن يائساً من لقاء حي في هذه الحجرة ، لقد كان يتوقع انه داخل لالتقاط الأشلاء ، فاذا هو يسمع أصوات الأحياء !•

ـ أنتم أحياء إذن !•• الحمد لله !

ـ وتجاوبت أصوات الجميع تردد : الحمد لله !

ولكن حسن ما كان ليصدق مسمعه ، انها لمعجزة كبيرة ان يجد في هذا القبر أحداً يتنفس ، وقد جرف النهر الجبار عشرات الأبنية أشد قوة ومقاومة •• وطوى المئات من الضحايا دون شفقة ولا رحمة ، فكيف يغفل عن هؤلاء الفرائس الضعيفة !•• لذلك جعل يكرر سؤاله : أنتم أحياء ••• ألم تفقدي أحداً ؟!

ولم تستطع فخرية أن تستمر في كتمان الحقيقة التي حجبتها عن بنيها حتى الآن •• فردت في صوت مفعم بنغمة الحزن والصبر •• « هناء •• هناء الصغيرة فقط •• »

ولكن الأطفال كانوا في شغل عن هذه الكلمة فلم يفطنوا للنبأ المفجع ، وأجاب حسن وهو يغالب الطين والماء: « الحمد لله •• لا بأس •• اطمئنوا ها أنذا آت • »

وانتهى الحمال البطل الى السلم الخشبية التي لمست قدميه قبل بضع ساعات ، وحنى ظهره لخالد : « اركب يا عمي •• اركب يا حبيبي •• »

وبعد دقيقتين كان خالد على أحضان رجل آخر يقف على مدخل الكهف ليناوله الى من بعده •• ثم تتالت عملية الانقاذ حتى لم يبق في الكهف سوى الماء والوحل الذي يغمر أكثره •• ولم يقبل حسن أن يترك جيرانه قبل أن يطمئن الى راحتهم ، فمضى بهم مع رفاقه المنقذين حتى ادخلوا احدى الدور الفخمة •• ومن ثم قفلوا جميعاً ليواصلوا عملهم في البحث عن الأحياء ••

كانت « فخرية » في النهاية من الجهد ، فما هي إلا أن اطمأنت للنجاة ببقية أولادها حتى هاجمها رد الفعل ، فإذا هي منهوكة محطمة لا تقوى على حملها قدماها ••

ولكنها مع ذلك كانت حاضرة الوعي تراقب وضع أولادها في لهفة ، فلما صارت الى مأمنها الموقت في تلك الدار ، جعلت همها انقاذ أطفالها من لذع البرد ، وبالرغم مما وجدته في أهل الدار من جمود في استقبالها ، لم تستنكف أن تطلب منهم تغيير ملابس الصغار في إلحاح ••

وتردد أهل البيت طويلا في الاستجابة ، وأزعجهم أن يروا بسطهم الفاخرة وبلاطهم الأنيق تتسخ بوحول هؤلاء الطارقين الثقلاء ، فحاولوا ابعادهـــم الى أطراف البيت • ولكن ذلك لم يفت في عضد « فخرية » ولم يسنحهـــا من الدفاع عن حياة أطفالها ، فأخذت تتوسل بمختلف الذرائع لاستبدال ثياب الصغار • وبعد جهــــد كبير استطاعت اقناعهم بالمعونة !•

وبقيت الطفلة الغريق « سلوى » •• انها بحاجةالى اسعاف طبي لا سبيل اليه في هذا المكان ، وقد عز عليها أن تسلمها الى الموت دون جهد ، فطلبت قليـــــلا من عصير الليمون ، وألحت في الطلب حتى لم يسع أهــل الدار إلا الاجابة ، وبذلك تيسر للطفلة ان تقذف ما بقي في جوفها من الفضلات ، وبدأت تعاودها حرارة الحياة ••

ولبثت « فخرية » مع أطفالها ساعات ثلاثاً في هذه الدار ، يلسعها البرد في ثيابها الغريقة ، ولم يكن لها مــن أمل بعطف هؤلاء النسوة ، فقد يئست من امكان التغلب على قسوتهن لاسعافها ولو بكيس من الخيش تلف بـــه جسدها الذي هده البرد ، وانهكه التعب ، فلم يكن لهـــا من حيلة سوى الرضى بما انتهت وما ستنتهي اليـــه •• وحسبها بعد ذلك ما ظفرت به من الاطمئنان على أولادها •

لقد كانت قبل قليل في أحضان السيل ، يحيط بهـا وبأطفالها من كل جانب ، في حجرة أشبه بالقبر ، انبتّت صلتها بكل ما في الدنيا ، فكانت محنة رهيبة لم تخطر لها على بال قط .

وها هي ذي الآن في دار فخمة تتلألأ فيها أنوار الكهرباء ، وتمتد في أرجائها المفارش الفاخرة .. ولكنها مع ذلك أشد ظلاماً من ذلك القبر ، لأنها فقدت نور القلب الذي يشع بالرحمة !

أجل إن « فخرية » لتقارن الساعة بين هول السيل وهول الظلم .. فلا تستطيع التمييز بين أحدهما والآخر ..

ويسوقها هذا التأمل الى نوع من المقارنة بين ناس وناس ، بين حسن الحمال الذي أقبل يغامر بنفسه لانقاذ المنكوبين ، وبين هؤلاء الكبراء الذين يضنون بفضلات ثيابهم عليهم ، فلا تتمالك أن تشكر الله على نعمة الفقر ، الفقر الذي أتاح لحسن وأمثاله أن يحتفظوا ببقية الرحمة الانسانية .. فكانوا بذلك هم الصلة الحية بين الانسان والانسان ... وكانوا بهذه الميزة عزاء لا غنى عنه للمعذبين ..

* * *

وأقبلت تباشير الصباح تفسح للمنقذين طريــق الكفاح ، وجاء أبطال الكشاف المسلم ، يرعون برحمتهم ضحايــــا السيل ، فكان نصيب فخرية وأطفالها كبيراً من هذه الرحمة، اذ نُقلوا الى مأواهم الموقت في احدى المدارس ، ثم نقلت من هناك الى المستشفى الاسلامي لتعالج من ذلك الشلل الذي استولى على نصفها الأسفل ..

وما كانت فخرية لتنسى في يسر طفلتها الفقيــــدة الضائعة ، ولكنها كانت مع ذلك شاكرة رحمة الله الــذي جعل رزءها أقل الارزاء بالنسبة الى المئات الذين جرفهم البـــلاء ..

إلى القرية

كان « محمود سالم » معروفاً بين أهل قريته « ••• » بالعقل وحسن الخلق ، فقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره لم يأخذ عليه الناس سوأة تشين سمعته ، وهو قد نشأ في بيت متدين تشيع في أرجائه روح التقوى والايمان ، فترك ذلك في نفسه وسلوكه أثراً تلمسه لأول وهلة • وكان الى ذلك أوسع أهل قريته مدارك ، قلما يرى خالي اليد من كتاب أو صحيفة ، وقد أعانه على ذلك حالة وسطى من اليسار ، اذ كان قد ورث عن أبيه مجموعة صالحة من الحقول مشجرة وغير مشجرة ، كافية لأن تجعله في بحبوحة من العيش بالنسبة الى الآخرين من جيرانه • وكان من جملة مزاياه التي ينفرد بها في وسطه انه هادىء المزاج ، مرتب الفكر ، قلما يقدم على أمر قل أو جل قبل أن يضع له خطته المحكمة ، يبذل فيها قصارى جهده ، ويقلب لها الرأي على وجوهه ، حتى يستقر على ما يقنعه أتم القناعة ،

فاذا مضى في تحقيق عزيمته لم يتردد أو يحجم ، ولم ينثن حتى يبلغ بها أقصى ما قدر لها ..

وكان لمطالعاته في ثنايا الكتب والصحف أثر عميق في تفكيره ، اذ أصبح على صلة بكثير من الآراء الحديثة ، وخاصة في التربية لذلك كانت نشأة أولاده الثلاثة مختلفة عن نشأة سائر أترابهم من السكان ، فهو معني بصحتهم عناية قلما تجد مثلها في أرقى بيوت المدينة ، فالنظافة التامة ، والغذاء الجيد، والرياضة اليومية هي قوام حياتهم، بحيث كانوا خلقاً آخر في محيطهم الذي لا يضيق بشيء كما يضيق بهذه القيود البعيدة عن طبيعة القرية .

وكان محمود قد أعد لبنيه هؤلاء خطة المستقبل ، وهيأ لها أدوات التنفيذ ، فأما سعيد ويوسف فسيكونان طبيبين، وأما شفيق الثالث فسيكون محامياً . وهو يعلم ان تحقيق خطة كهذه يقتضيه الخروج عن أرزاقه كلها أو معظمها للانفاق عليهم ، ولكنه مقتنع بأن ذلك خير ما يعمله لبناء مثقفين يشار اليهم بالبنان . وشتان بين ثروة من أشجار وتراب هي أبداً تحت رحمة القدر من خصب وجدب ، ونقص ومزيد ، وبقاء ونفاد ، وبين ثروة من علم هي أبداً منبع متزايد التدفق لا ينضب لخيره معين ، ولا يخشى عليه نقص أو نفاد !

وكان التطور قد عمل عمله في حياة القرية وسرت في سكانها عدوى التعلم ، فأقبل الآباء على مدارس القرى يملئونها بأبنائهم حتى تضيق ، ولم يكتف الكثير منهم بالشهادة الابتدائية لأولادهم فبعثوا بهم الى متوسطات المدن وثانوياتها يتابعون دراساتهم ، وكثيرون منهم هجروا حقولهم الى حيث يقيمون مع أبنائهم في المدينة ، وكثيرون أيضاً لم يجدوا سبيلا للهجرة فأقاموا مكرهين يرسلون لأولادهم غذاءهم اليومي من خير ما يأكلون . ولعل بعضهم لم يجد قدرة على أداء الرسوم المدرسية ، فدفع ببناته الى الخدمة في بيوت السراة ليسددوا بأجورهن تكاليف الدراسة عن اخوتهن .

لذلك لم يكن غريباً أن تقوم خطة محمود على الهجرة الى المدينة ، وبيع أملاكه في القرية من أجل تأمين غذاء أولاده العلمي ، وقد توفر له من ذكاء هؤلاء الأولاد ما يطمئنه على تحقيق أحلامه .

أجل ان شفيقاً ثالث بنيه لم يكن في مستوى أخويه من حيث المواهب ، ولكنه لم يكن كذلك غبياً الى حد موئس فهو قد سقط في امتحان الشهادة الابتدائية ، ثم لم يظفر بها الا في الامتحان الثاني وبدرجات لم تتجاوز المعدل الا قليلا ، ولكنه موقن على كل حال بأن في وسع

التربية الحديثة ان توقظ كمين المواهب في نفسه ، اذ ليس ثمة انسان خلق بغير موهبة ، وانما على أسلوب التربية يتوقف بروزها أو انحلالها •

ولقد تم لمحمود ما أراد ، وها هو ذا أصبح واحداً من سكان المدينة منذ احدى عشرة سنة، وقد أشرفت خطته على نهايتها ، لم يعتورها إلا قليل من التحول الذي لم يكن مسئولا عنه • فولداه سعيد ويوسف في الصف النهائي من الجامعة السورية ، وقد قطعا مرحلتهما حتى الآن في تفوق يغبطان عليه ، اذ لم يعثرا قط في صف مدرسي أو جامعي ، ولم يبق بينهما وبين التخرج سوى بضعة أشهر ••

أما شفيق فهو الذي اخطأ تقديره ، اذ جمد في صفوفه المتوسطة حتى يئس منه الأساتذة ، وكان مما اقترحوه على أبيه أن يخرجه من المدرسة ليجعله في مصنع للحدادة ، وها هو ذا يغدو ويروح على المصنع منذ خمس سنوات حتى أتقن مهنته بعض الاتقان ، وصار في وسعه ان يتناول بعض الأجر ولو زهيداً على عمله اليومي •

وتكاثرت اسرة محمود أثناء ذلك حتى بلغت ستة أولاد بينهم بنتان واكثرهم في طور الدراسة •

ولكن شيئاً واحداً كان قد بدأ يزعج محموداً ذلك ان

ما بيده من ثمن الأملاك المبيعة قد نفد كله ، ولم يبق مـا يدر عليه رزقاً سوى حقل صغير وحانوتين كان قد أشتراهما مع البيت الذى يقطنه يوم هبط المدينة . ولأول مـرة في حياته أخذ يشعر بأنه مدين وانه عاجز عن توفية ما عليـه للباعة والمرابين . بيد أن الفرج قد أصبح قريباً ، وعليـه أن يصمد تحت اعبائه بضعة أشهر أخرى ريثما يتخـرج ولداه ، ويومئذ تنقشع الغمة اذ يكونان في مركز مناسب من مصحات الدولة ..

وثبت محمود لدهره ما وسعه الثبات ، وكان ثباتـه جباراً اذ فرض على بيته نوعاً من التقنين لم يألفه بعد ان مرن على حياة المدينة ، وما تستلزمه من تكاليف لا تعرفها القرية ، فجعل يقتر في النفقة تقتيراً شمل كل شيء حتى الغذاء والكساء ، وجعل ينظم نفقته حسب موارده الضئيلة بحيث تتوازن مع دخله .

ولا جرم انمحاولته هذه كانت مغامرة أول الأمـر لقيت كثيراً من مقاومة الأسرة ، اذ كانت ضرباً من الضغط العنيف يفرض عليها الحرمان من كل هذه الكماليات التي تغلغلت في وجودها ، حتى أصبحت لهـا من ضروريات الحياة . وكم كان شديداً على هذه الأسرة ان تلغي يوم استقبالها الأسبوعي لتوفر على موازنتها الشهرية ثلاثين

ليرة سورية ، وهو التدبير الذي عمد محمود الى تنفيذه أول كل شيء ، اذ كان يرى ان هذا الاستقبال يستتبع أكثر التكاليف التي يمكن حذفها من موازنته ، بما يفرض على الأسرة من اتصال وتزاور يقتضيان مظاهر مرهقة من ترف لا قبل له به . فلما نجح في هذا التدبير سهل عليه ما وراءه من جزئيات أخرى ، وأصبح بيته منذ ذلك اليوم كأنه منطقة مفصولة عن البلد لها حياتها الخاصة وطرازها المميز .

ولأول مرة كذلك أحس أثر شفيق في حياته وحياة بيته ، اذ كان هذا يضع مجموع مرتبه مئة ليرة بين يدي والده آخر كل شهر ، لا يقطع لنفسه منها الا ما يدفعه اليه أبوه ، فيعرف الأب قيمة ولده ، ويوشك أن يؤمن بأنه لم يخطئه النجاح في دروسه الا لحكمة خفية أعدها القدر في عالم الغيب ، ولكن شفيق لم يستفد من تقدير أبيه له ، اذ لم ينقذه هذا التقدير من احتقار اخوته حتى ولا من احتقار نفسه ، ولا سيما عندما يرجع اخواه الجامعيان الى البيت في فترات الاستجمام ، فينقلب البيت نادياً تستعرض فيه الأفكار الحديثة في السياسة والتربية والاقتصاد والاجتماع والصحة ، وتذكر أسماء الفلاسفة والعلماء ، وتروج التعابير الأعجمية من الانكليزية والفرنسية ، وهو جامد في زاوية الغرفة يتصبب عرقاً ، ويتلقى سخريات

اخوته بين الفينة والفينة ، حتى لا يجد متنفساً لكربه إلا في الانسلال الى الشارع ..

وانقضت بقية العام ، وكانت صبيحة سعيدة عندما تلقى أهل بيت محمود اسم سعيد ويوسف بين أسمـــاء الناجحين فيفحوص الصفوف النهائية من كلية الطب، وكأن سراً خفياً لمس لسان المذيع الدمشقي عندما ذكرهما ، فأحس الجميع فيتلك الحروف نغما حلواً أشاع الفرحة في أعصاب الجميع ، حتى محمود نفسه لم يتمالك أن يعبر عن شعوره بدورة قصيرة بين اولاده الراقصين ، ذلك لأن نجاح ولديه لم يكن في نظره نهاية درس أثمر شهادة ، ولكنه كان بداية حياة جديدة فتحت السبيل واسعة لتحقيق قديمات امانيه المذهبـــات .

* * *

لم يكن بد من راحة طويلة اثر جهاد طويل ، وان شـــهراً كاملا يقضيه بيت محمود في استقبال المهنئين لأمر جـــد طبيعي ، وهكذا كان الشهر حافلا بسهرات لم تخل من متع بريئة ، ولكنها لم تخل كذلك من حالات أخرى تركت في قلب محمود لطخات سوداء حجبها على مضض ... ذلك ان سعيداً تجاوز في بعض مواقفه ما يقتضيه الأدب بأزاء

أبيه ، فكان يدفع تدخله في أي حديث سياسي أو اجتماعي بشيء من الخشونة ، بل بكثير من السخرية والتهكم ، كأنه يريد أن يكفه عن الكلام، أو يريد أن يعممه بأن لا حق لمثله بالخوض في حديث هو وقف على حملة الشهادات وحدهم !.

وتلقى محمود ملاحظات ابنه بل صدماته برصانته المعتادة، ورضي ان يرتفع ابنه على حسابه أمام الحضور من رفاقه الشباب ، وكان لا مندوحة له عن ذلك ، وهو الذي أنشأ أبناءه على حرية الفكر والمناقشة إيمانا بما قرأه من نظريات المحدثين ، فكان لزاماً عليه أن يحصد ثمر جهوده وتربيته بمثل هذه الردود القاسية .

ولكن المشكلة لم تقف عند حدها هذا ، ولم تعد القضية بين محمود وولديه كليهما قضية أدب بيتي تهتك حرمته هذه التربية الجديدة ، بل أصبحت معضلة أخرى من نوع آخر ، ذلك أن سعيداً يسانده يوسف قد جعل يتخذ من هذه الاجتماعات الليلية فرصة للطعن على الدين ، كلما وجد عند سامعيه استعداداً لهذا الطعن ، ثم للدعوة الى أفكار غريبة لم يجد في وسعه السكوت عليها .. فالأنبياء في حديثهما انما هم مجموعة من المشعوذين والدجالين ، وليست الكتب السماوية سوى مخدرات

سامة تستهدف تمكين الاقوياء من أعناق الطبقات العاملة ، ثم هي لا تستطيع الصمود لحظة أمام ضوء العلم ، لأنها تقوم على أساس من الوهم المحض ، ما دامت منسوبة الى ذلك الشيء الخرافي الذي يسمونه « الله » !•• ولن يكون الانسان انساناً حقيقياً على هذه الأرض حتى يتحرر من « الله » وحتى يتخلص نهائياً من ذلك القيد المضلل الذي يدعونه « القدر » ••

ثم ان الوجود ـ في حديثهما ـ مبني على الصدفة المحض ، والصدفة قوامها الفوضى ، فعلى الانسان أن يصنع هذا الوجود من جديد فينظمه تنظيماً ينقذه من فوضاه ، في مساواة لا مجال فيها لسوء التوزيع • ولا سبيل لذلك الا انقلاب عام شامل يحطم أوضاع الانسانية القديمة كلها ليقيم على انقاضها نظام الشيوعية ••• »

وما كانت الشيوعية بالشيء الغريب عن محمود ، فهو قد عرف الكثير عنها خلال ثلاث سنوات ، عن طريق ولده سعيد هذا الذي لقنها من أوساط الجامعة ، ثم جعل يقرأ عنها ويسمع حديث دعاتها في كل مكان حله من الشارع والمقهى وحتى المسجد ، ولعله قد أصبح مؤمناً بطائفة من مبادئها النظرية ، التي تتراءى له كوسيلة بريئة لانقاذ كثرة الناس من أوضاعهم الشاذة ، ولعله قد آمن بهذه المبادىء

لأنها قريبة الشبه بما يفهمه عن روح الاسلام الذي يستهدف ازالة الحواجز بين الطبقات البشرية كافة ، والذي يقوم على أساس من الانسانية الجامعة التـــي لا تفرق بين الأفراد والأجناس إلا بما يقدمه هؤلاء من نفع للناس ..

بل لعله يعد نفسه مسئولا الى حد عن ايغال ابنه هذا وأخيه في الشيوعية ، وفي اشاعتها بين أفــراد البيت حتى الصغار ، وذلك لما لقياه من ارتياحه الى حديثهما عنها منذ أول يوم ذكراها على مسمعه .. وقد طالما أعرب لهما عن سروره بهذه الحيوية العقلية التي تشيع في جو الجامعة ، فتتيح للطلاب أن يتعمقوا مشاكل المجتمــــع الانساني ، ويبحثوا عن الحلول الصالحة لازماته المعضلة ، وطالما هتف بهما ، وهما يعرضان له هذه المبادىء :

« إي والله .. ان هذا لهو الاسلام عينه ، وما كــان ماركس ولينين وستالين سوى دعاة لهذا الجانب الاجتماعي من رسالة القرآن .. » !

ولكن محموداً ما كان ليعلم قط ان ثمة مثل هذه الصلة بين الشيوعية وبين هذا الضرب من الالحــاد والتجديف الذي يتلقاه مسمعه لاول مرة على لسان سعيد ويوسف !.

وكان آلم ما يؤلمه من شأن ولديه هذا انهما لم يكونا

صريحين صادقين فى عرض افكارهما الغريبة هذه ، فهمـــا لا يجهران بتلك الجوانب الالحادية الا في مجالس اشباههما من الطلاب وحملة الشهادات ، أما اذا كان السامعون من طبقة العامة فهما على شاكلتهم مؤمنان بما يؤمنون بــه ، مقدسان لما يقدسونه ، بل انهما ليبذلان كل جهدهما لبيان التوافق الكامل بين وجهات الشيوعية ومقاصد الدين التي تسيطر على قلوب هؤلاء العامة !.

وصحيح أن محموداً لم يكن على علم بهذه الاساليب من الجدل الذي تتكاثر فيــه ألفــاظ « الدياليكتيك ، والبورجواز ، والكولكوز .. » وما اليها من مصطلحات غريبة ، ولم يكن يعرف مدلول هذه القوانين الطبيعية أو المنطقية التي تتدفق على لسان ولديه وأشياعهما من الشباب أثناء هذه الجلسات ، ولكنه كان موقناً من صميم قلبه انها ليست أكثر من تلاعب بالالفاظ لا يستقيم أمام ما اطمأن اليه من فهم لهذه الامور التي يسمعها ، ثم هو لا يستطيع أن يؤمن بسهولة ان كل ما نشأ عليه من عقيـــــدة في الله وصفاته ليس إلا لغواً لا قيمة ولا وجود له خارج نفسه..

فكيف يجوز أن يكون الله وهماً من الأوهام ، وهو في ضميره الحقيقة الكبرى التي لا حقيقة إلا بها !!

وكيف يكون القرآن أسطورة من الأباطيل البدائية ،

وهو الذي يغترف منه صباح مساء معيناً لا ينضب من الطمأنينة والعزيمة والحياة .. !!

ثم كيف يكون الوجود صدفة لا صانع له . وهو يحس بأعمق وجداناته وراء كل ذرة من ذراته عمل القدرة الأزلية الحكيمة جلية لكل ذي عينين !!!

والقدر .. كيف ينكر القدر ، وهو الذي لا يكاد يرى أو يحس إلا أثره الأعظم في كل شيء من حياته !! وانه ليرى في حياة أولاده نفسها أكبر مظهر لحكمة القدر التي لا ينكرها إلا طائش أو مكابر !؟

وهل كان لولديه هذين أن يعرفا حتى هذا اللغو لو لم يتح له القدر أن يعلمهما ويرعاهما هذه السنوات المديدة!. وهو نفسه أكان قادراً على مجرد التفكير بتعليمهما لو انحرف به القدر قيد شعرة عن سبيله التي نشأ عليها !!

لا جرم ان وجود هذين الطائشين وحده لمظهر من هذه الحقيقة التي يكفرانها ، وصفحة بارزة من قصة القدر الكبرى .

وكم كان رد الفعل شديداً ضد ما في نفسه من صور قديمة عن الشيوعية بسبب هذه التهجمات الجارحة

لوجداناته ومقدساته !.. لقد أصبح يكره الشيوعية حتى لا يستطيع تصورها الا مقترنة بكل هذا التجديف ...

وعبثاً حاول أن يعظ ولديه أو يجادلهما في هـــذه الشئون ، فالثغرة متسعة بينه وبينهما لا سبيل الى تلافيها أو ردمها ..، والعقليتان متباينتان متباعدتان تباعد الجيل عن الجيل والزمن الأقصى عن الزمن الأدنى ، وهو فضلا عن ذلك كله لا يُسمح له بحق القول أو الدفاع ، كأنه في نظر ولديه كمية مهملة لا شأن لهـــا ... وكم تلقى حتى الآن من رد جارح على محاولاته ، أقل ما فيه ذلك التهكم القاتل لكبرياء الأبوة .. فليس من اليسير أن يسمع من المخلوق الذي أذاب وجوده في وجوده مثل هذه الكلمـــة الصاعقة تصدع مسمعه كلما دق الكوز بالجرة : « جاهل .. رجعي .. » !

وجاءت الكوارث آخذا بعضها برقاب بعض ، حين بدأت قوى الأمن مطاردة ولديه ، فهما لا يكادان يتنفسان نسيم الحرية حتى يعودا الى السجن من جديد ، فيتكلف في سبيلهما من النفقات أكثر مما كان يتجشمه على تعليمهما ، وها هو ذا يبيع أحد حانوتيه ويرهن الآخر لسد بعض مـــا تراكم عليه من الديون . وفشا القلق في الـــدار وانشقت الأسرة بعضها على بعض ، واضطربت أفكار الكبار والصغار حتى أقبل الامتحان المدرسي يسجل اخفاق التلاميذ منهم

لأول مرة منذ بدؤا حياتهم المدرسية !.

وبالرغم من جلد محمود ورزانته المعهودة ، وكتمانه لشجونه حتى عن أخلص أصدقائه ، فقد جعلت هـــذه الكوارث تعمل عملها في جسده وروحـــه فتلقيه فريســة للمرض العصبي ، ويشيع الهزال في وجهه الممتلىء وهيكله القوي ، فاذا هو أشبه بالخيال برزت وجنتاه وغـــارت حدقتاه ، وابيض رأسه ، وضمرت أعضـــاؤه ، وتراءى في عينيه العميقتين الذهول ، فكأنه شبح يتحرك لا انسان يحس ويبصر ..

وانطوى العام ثم العام على صروح من الآمال الضخمة تحولت أنقاضاً ، وعلى جنة من الحياة البيتية عادت جحيماً، ولم تعد المشكلة مشكلة عذاب وأوهام لا حد لها ولا قرار فحسب ، ولكنها الى ذلك مشكلة اقتصادية لا سبيل الى حلها بين الحلول .. انها مشكلة ثماني أنفس لا مورد لهم في الشهر الا خمس عشرة ليرة سورية غلة الحقل ، ومئة ليرة أخرى هي مجموع دخل شفيق ينتزعها بذوب قلبـــه وجبينه من مخالب المطرقة ..

ولم يبق ثمة من منفذ للرجاء بتحقيق شيء من تلكم الأحلام السعيدة التي طالما شادها في خلواته على مستقبل سعيد ويوسف . ولعل من أعاجيب القدر أن لا يبقى لـــه

معتمداً في شيخوخته سوى مرتب هذا الحدّاد الذي طالما عيره بأنه وصمة العار في بيته ، والذي طالما تجرع غصص التأنيب والتحقير من سائر اخوته وأهله فيطرق خاسئاً خزيان لا ينبس ولا يحسن التعبير عن هوانه بغير الدموع .

ان محموداً ليتساءل في دهشة عما كان ينتظره من ارزاء مجهولة أخرى ، لو أُعطيَ هذا الحداد مثل ذكاء أخويه فساقه القدر الى مثل مصيرهما !!

❋ ❋ ❋

وخلا محمود ذات يوم الى نفسه في أحد البساتين خارج المدينة ، وأطرق مليا يستذكر مأساته ، لعله يعثر بحل لبعض هذه المعضلات المستعصية ، واستعرض الكثير من الحلول ، وكان أشهاها الى نفسه أن يفتح ذراعيه للموت يحتضنه في بقعة من البحر بعيدة عن أعين الناس ، وقد ربط الى عنقه صخرة رحيمة تمسكه على القاع ، فلا يبلى رباطها حتى يكون موزع الاجزاء في أجواف الأسماك .. بيد أنه لم يرض أن يختم وجوده بميتة لا يرضى عنها الله فيخسر آخرته كما خسر دنياه .

ورأى نفسه يتذكر على غير وعي منه أباه الشيخ الزاهد

الذي وافاه الأجل قبـل عشرين سنة ، فيتجسم في خيـاله كشأنه يوم كان على فراش مرضه ، يعاني أهوال اختـلال المثاني ، فلا يستطيع أن يتخلص من فضلاتها إلا عندمـا يقوم محمود باسعافه . وتدوّي في سمعه من وراء السنين كلماته الأخيرة : «لقد خدمتني أكثر مما خدمتك يا محمود، فليلقنّك الله في أبنائك كفاء صنيعك الي .. » فيبكي كما كان يبكي يومئذ حين كانت أذناه تتلقيان تلك الكلمات ، وينظر الى حاضره فيرى نفسه في أهوال اختـلال من نوع آخر ، يضيق عليه أنفاس الحياة بأيدي أحب الناس اليه ، بأيدي من كان يرجو أن يستجيب الله دعـاء أبيـه فيهم ، فيأخذه العجب من هذه النتيجة ، ويتساءل عن السر في هذه المفارقات ، ولكنه لا يلبث ان يتذكر أنه هو وحده المسئول عنها ، لأنه هو الذي سعى الى هذا المصير بما أنشأ عليه ولديه من طريقة غير الطريقة التي نشأ عليها في كنف أبيه ، وخلق غير الخلق الذي أخذه عنه . والذي هو أهم مـن ذلك كله ان أباه قد تخيرله أفضل ما في وسعه أن يتخير من توجيه يوصل في رأيه الى رضوان الله ، أما هو فقد تخير لولديه أفضل ما في وسعه من توجيه يوصل الى مجـد الدنيا . وهكذا كان لهما أن يختلفا في نوع المصير فينعم الجد بهناءة الشيخوخة ، ويشقى الأب بهذا البلاء الذي لا نهـاية له .

انه يتذكر ذلك الماضي البعيد ، أيام كان ينظر الى والده كمن ينظر الى أقدس المقدسات،فلا يكاد يرفع صوته بين يديه ، ولا يضن بشيء في مرضاته ، وقد ظل على توقيره ذاك له حتى بلغ مبلغ الرجال ، فكان لا يسمح لنفسه بالتدخين إلا في غيبة منه رغم علم أبيه بذلك ، ورغم كون أبيه من المدخنين المدمنين ، ولقد لبث يمرضه بيديه ثلاث سنوات لم يبد خلالها امتعاضا قط ، كل ذلك تقرباً الى الله وتحقيقاً لقوله الكريم : « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا ، إما يبلغنّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أف ولا تنهرْ وقل لهما قولا كريماً •• »

يذكر ماضيه هذا ثم يذكر حاضره ، والأسرة التي ألفها هو والبنين الذين تولى توجيههم ، وكيف رضي لنفسه أن ينزل عن حقه الأبوي ليكون كأحدهم يرافقهم مرافقة الصديق لصديقه ، ويحادثهم محادثة الند لنده ، فكان فرق ما بين الطريقتين فرق ما بين حاضره وماضي أبيه ، وفرق ما بين السعادة الغامرة ، والشقاء الذي أغرق بيته ووجوده بهذه الظلمات •

وهكذا كفر محمود بكل ما آمن به من قبل ، ولم يزده إخفاقه المريع إلا يقيناً بروح التربية القديمة ، وأصبح يعتقد ملءَ قلبه ان خطته العقيمة في توجيه أولاده لم تكن

سوى انحراف خطير عن حكمــة السماء ، الى جهالات مزوقة ببهارج المدنية ، كالمومس تسرف في التبرج لتسرف في الاغراء ، فليس تبرجها سوى ستار لعوراتها •

ولم يكن إيمانه بفساد خطته التربوية أشد من تنكره لتعاليم الشيوعية •• فقد شاءت المقادير ان تنكشف لــه سَوءات الأولى فى الوقت نفسه والأسلوب نفسه اللذين كشفا له مثالب الثانية ، لذلك لم يكن في وسعه أن يتمثل الشيوعية بعد اليوم إلا في ثوب من الخطر والتهجم عــلى أقدس مقدسات الانسان •

وانتهى به تفكيره الطويل الى حل لا ثاني له ، فلم يلبث أن أمسك قلمه ليخط به هذه الكلمات :

« الى الشقيين المجرمين سعيد ويوسف ••

أما بعد فقد بذلت في سبيلكما من الجهد ما ليس في وسع مثلكما أن يقدره ، بعد أن طمس الله على بصيرتكما ، فاكتفيتما من الحياة كلها بورقتين كنت أحسبهما جوازاً يمكننا جميعاً من الدخول الى جنة الأمجــاد والسعادة ، وشاء القدر أن يكونا عنوان كتاب في كل حرف منـــه جحيم وتحت كل كلمة منه شقاء ، ولو قد بقي في أعينكما بقية من النور لرأيتما حقيقة هذا الضلال في ما احطتما بــه

نفسيكما ومجموع الأسرة من عذاب ونكال جعلا هذا البيت المستور موضع الشفقة والشماتة عند كل محب ومبغض ، فالتلاميذ من اخوتكما خسروا تفوقهم الماضي حتى أصبحوا في مؤخرة أترابهم ، والخلاف قد اكتسح بظلماته حرمة العش الزوجي ، فأمكما في واد وأبوكما في واد ، فكأنهما ، كما تقولان ، متوازيان لا يلتقيان ، والدار قد أصبحت غرض الجند يفاجئونها ليل نهار بحثاً عنكما أو تحقيقاً معكما ، وليت ذلك كان لهدف نبيل فيه نصرة الحق والكرامة ، اذن لهان العذاب ، ولكنه في سبيل غرض خطير هدام من شأنه أن يمحو كل أثر للحق والكرامة لو صحبه التوفيق لا سمح الله ..

ولقد كان بوسعي أن أغمض الطرف على القذى لو تعلق هذا الخطر بي وحدي ، ولكنه تجاوز ذلك الى مستقبل هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين تريدان أن تقذفا بهم الى أسحق الدركات ، وقد طالما بنيت لهم على نجاحكما صروح الآمال ، فاذا أنتما تبنيان لهم مَحرقة لا سبيل الى تلافيها إلا بالتصميم على التضحية التي لا يزال لدي قدرة على احتمالها .

لقد كشفت لأعينكما واقعنا الرهيب من الناحية الاقتصادية ، وعرضت لكما قائمة مفصلة بموازنة البيت

التي أثقلها الدين وضاق بها الدائنون ، رجاء أن أعثر في صدريكما على بقية من النخوة تصرفكما الى الحق عن الباطل ، فاذا أنتما تقضيان على آخر مأمل في نفسي ، حين بينتما اصراركما على ما أنتما عليه من فناء في الشيوعية ، كأنكما نبيان تدعوان الى الله ، لا مجرمان تدعوان الى خراب القلوب العامرة ، ودمار الطمأنينة في النفوس الطاهرة .. ثم لم تخجلا أن تظهرا اعتمادكما على مرتب ذلك الحداد المسكين ، زاعمين أنه يكفي الأسرة كلها اذا هي ضاعفت من تقشفها ، ووطدت نفسها على الحرمان .. كأنكما نسيتما موقفكما من هذا البائس الذي رفعه الله بجهله كما اسقطكما بشهاداتكما !..

لا أريد أن أستسلم الى ثورة النفس فثمة أشياء لا يتسع لها الورق ، وحسبي أن أختم رسالتي هذه بعرضين اثنين أدع لكما اختيار أحدهما خلال أسبوع ، حتى اذا أبيتما الاختيار عمدت غير آسف الى اختيار ما أراه لزاماً علي .

فأول هذين الاقتراحين : أن تتوبا الى الله من ذلك الانحراف ، فتسيرا سير الجماعة المؤمنين من أهل بيتكما الذي بني على طاعة الله ، وهذا يقتضي نزوعكما عن الشيوعية واعلان انسحابكما منها في الصحف السيارة .

وثاني الأمرين : أن تتركا بيتي الى حيث .. فتدعا لي فرصة العمل على تدارك ما هدمتمامن بناء هذه الأسرة، ما دام لدي بقية من القدرة على ذلك .

أما اذا أبيتما الانصياع الى أحد الحلين فستكون النتيجة المحتومه أن أترك لكما البيت لتعيشا مع والدتكما كما ترغبان ، وأنجو ببقية أولادي حيث نعيش في كنف ذلك الولد البار الذى حفظته لنا رحمة الله ... « فان تولوا فقل حسبي الله لا إلـه إلا هو عليه توكلت .. »

والسلام على من اتبع الهدى .. »

« محمـــود .. »

* * *

وكان تصميم محمود قاطعاً حاسماً ، فلما جاء مطلع الاسبوع الذي تلا موعد الكتاب دون أن يتلقى رد ولديه ، كان عليه أن يرتب أمره لتنفيذ تصميمه الذي حزم عزمه عليه . لقد أصبح مقتنعاً ان لا جدوى له من البقاء في المدينة بعد اليوم، بل انه لا يطيق هذا البقاء ولو توفر له ، ولقد ثار في قلبه حنين عنيف الى الخلاص من هذا الجو الخانق والعودة الى مسقط رأسه ، حيث يأمل أن يجد في تلك البساطة التي

هجرها بالأمس ما يسليه عـن حاضره المثقل بالأعباء ..
وجعلت هذه النزعة الى القرية تنداح في أعماق صـدره
حتى سيطرت على مشاعره كلها ، فكأن هاتفاً لا يبرح أذنيه
يدعوه الى استجابة ذلك الحافز كلما خلا الى نفسه ، ولقد
تيقظت في خياله صور الماضي كله تحمل ألوانها الجديدة
التي ما كان ليعهدها من قبل ، فالبيت الترابي المتواضع ،
وشجرات التين الثلاث التي تظلل فناءه وتحنو عليه بقطوفها
الدانية ، والخم الذي يضج بأسراب الدجاج في زاويـة
الفناء ، والمعابر الضيقة التي ألف أن يسلكها الى باحـة
القرية ، والى مسجدها الصغير النائم في أحضان السنديان،
والوجوه الساذجة التي تستقبله بتحياتها أينما حل من القرية،
وقد لوحتها الشمس ، وارتسمت على أساريرها الصادقة
بساطة القلوب ، وصفاء الضمائر ..

كل هذه الأشياء أصبحت لها معان أخرى في خيـاله
طالما افتقدها في أشياء المدينة فلم يعثر لها على أثر . لقد
بات في غمرته الداجية أشبه بالغريق تتقاذفه الأمواج في بحر
مظلم ، فتنتشر في خياله مشاهد البر ، فاذا كل شيء مـن
أشيائه له أسراره وله طعمه وله جماله ...

على انه يعلم ألا سبيل لاستعادة الاستقرار الـذي
خرج عنه باختياره في تلك القرية ، اذ لم يبق له من أملاكه

فيها سوى تلك الدار التي ضن بهـا علـى البيع احتراماً لذكرى أبيه وأمه، ورغبة في أن يقضي بها فصل الصيف الذي اعتاد أن يقضيه هناك في أكثر السنين . وكان بوسعه أن يقيم لابنه شفيق مصنعاً لحرفته في القرية يكفيهم مؤونـة الحاجة ، ولكن شد ما يتعذر عليه أن يغادر المدينة قبل أن يوفي ما عليه لدائنيه ، فليس من اليسير على نفسه أن يتقول الناس انه فر من المدينة هرباً من الوفاء ، وفي المدينة سوق رائجة لاستهلاك الشوائع ، وألسنة لا يعجزها أن تختلق العجـائب ...

* * *

وكان محمود على أشد ما يكون من القلق حين أقبل ابنه الصغير ينبئه بقدوم عمه الشيخ سليم .. ولم يكـن بعيد العهد برؤية ذلك الشيخ الهرم الصالح ، فقد استقبله ثم ودعه قبل بضعة أيام ، اذ جشم نفسه عناء السفر الى البلد ليهنئه بنجاح ولديه ..

وكأن شيئاً خفياً أخذ بزمام نفسه نحو التفكير بهذه الزيارة المفاجئة ، فأخـذ يستعـرض ، دون وعي ، بعض الظواهر التي شاهدها عليه يوم ذاك .. لقد لاحظ محمود يومئذ عند عمه رغبة في الكلام عن أشياء لم يتمكن مـن

تفهمها ، لأن عمه لم يستطع التغلب على تردده ، ثم انتهت بغير أن يفصح عن ذات صدره، وما كان له أن يطيل الفكر بشأنها ، اذ سرعان ما نسي كـل شيء ، ليغرق في مصيبته الواسـعة ..

وتقدم محمود لاستقبال عمه الشيخ ، وفي نفسه الكثير من هذا التساؤل الذي لم يجد له جواباً .

ولم يطل المقام بالزائر الا ريثما استرد راحته من عناء السفر ، وهناك أفضى اليه بما قدم من أجله : ان الشيخ يحس اقتراب أجله ، ويحب أن يطمئن الى مصير ابنتـه الوحيدة ، فلم يجد من سبيل الى ذلك سوى تزويجها من حفيد أخيه .. شفيق ..

وما كانت الفكرة غريبة على محمود ، فهي تراوده منذ شهرين لا أكثر .. ولكنه ما كان ليتوقع تحقيقها في مثـل هـذا اليسر ..

.. وبعد أيام عاد محمود مع عمه الى القرية ، وكان أغرب شيء في نظره انه يعود اليها بنفس العدد من النفوس الذي هبط به المدينة قبل ثلاث عشرة سنة .. ولكنه يعود هذه المرة وفي وجوده أشياء لم يكن له بها عهد من قبل ..

فهناك شفيق أول حداد في القرية ، وهناك اخـوة

شفيق الثلاثة الذين بدؤا ضرباً جديداً مـن الدرس ، لا يستهدف الطب ولا المحاماة ، ولكنه يستهدف تقوى الله والتزود بما يؤمن انه يحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة ..

ثم هناك روح جديد يملك عليه كل تفكيره ، ويدفعه دفعاً الى الاتصال بكل واحد من أهل هذه القرية ، التي آلمه ما وجد فيها من بوادر خلاف يمزق هدوءها ، ويشتت قلوبها ، فلا يستطيع قراراً حتى يرد الى الناس ما فقدوه من روابط المحبة ، ويجمعهم على وحدة من التعاون ما عرفوا له طعماً منذ أن دبت الى قريتهم طلائع هذه الحزبيـات الخبيثـة ..

لقد أصبح لزاماً على محمود أن يكون لأسرتـه الجديدة كل شيء ، فهو الأب والأم والخادم ، وهو بعـد ذلك الموجه الذي يساعد التلاميذ منهم على فهم دروسهم وتقويم نفوسهم ..

وكان عليه كذلك أن يهب لعمه المقعد مثل الذي وهب لأبيه من قبل : رعاية تخفف عنه بعض ما يعانيه من آلام احتباس البول ، وبر يجعله مستريحاً الى نهايته القريبة .

ولم تكن مهمته في أوساط القرية بأيسر من كل ذلك ، فهو واعظهم المحبوب ، ومرشدهم المفضل ، يذكرهم بالله ،

ويفقههم بأوامره ونواهيه ، فيحصن نفوسهم من هذه الآفات الهدامة التي يريد ولداه العاقان أن يغزوا بها قريتهم بين الحين والحين .

ولا ريب ان في ذلك أعباء فادحة ليس من اليسير أن ينهض بها رجل كمحمود ، ولكنهـا ما لبثت أن أصبحت أمراً مألوفاً عند تلك الارادة الجبارة المصممة ..

وانتقل الى حوزة محمود أخيراً نصف ميراث عمه ، الذي لم يوافه الأجل إلا بعد أن قسم تركته نصفين جعل أحدهما له ، والآخر لابنته زوجة شفيق .. وكان ذلك عونا كريماً رد إليه كل ما باعه لعمه مـن ميراث أبيه ، وزاده بسطة في العيش مكنت له أن يسهم في انقاذ الكثيرين من فقراء قريتـه .

وكان الزائر لبيت محمود يرى في صدر احدى قاعتيه لوحة أنيقة كتب عليها بخط جميل تلك الآية الموحية مـن كتاب الله : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة .. »

ويرى في صدر القاعة الثانية لوحة مماثلة تحمل الآية الأخرى : « ومن يتقِ اللهَ يجعلْ له مخرجا ، ويرزقه من حيثُ لا يَحتسب .. »

حياة جديدة

.. كان الهدوء ثقيلا في خطوط المجاهدين ، أشبه بالسكون الذي يسبق الزلازل ، فالملازم «عربي» قابع وراء صخرة تتكي على جانبيها فروع من شجيرة شائكة ، وقد أخذ كل من رفاقه مثل مكانه وراء الصخور الاخرى وفي الحفر على غير انتظام، بينما كانت مستعمرة «هابوكر» الجاثمة في أعلى التل المقابل تموج بحركة لا تنقطع وتتعالى في فضائها ، بين الفينة والفينة ، لمعات ملونة من أضواء الاشارة ..

وطال انتظار المجاهدين، وثقل صمتهم، وكان محظورا عليهم أن يشعلوا أي لفافة خشية انكشاف مواقعهم ، مما ضاعف توتر اعصابهم ، فأخذوا يعربون عنه بنفخات طويلة كانت الاثر الوحيد الذي تتحسسه منهم تلك الصخور المبعثرة على حافات الوادي .

وكان طبيعيا أن تنطلق الأخيلة لتنفس مــن ضغط الصمت . ولعل أخيلة «عربي» اشدها انطلاقا واكثرهـا الوانا ، فسرعـان مـا الفى نفسه سابحا في وحي هـذا الظلام العابس الثقيل ليتصل من خلاله بظلمة مماثلةقديمة. ما لبثت أن بعثرت في باطنه صفحات ماض بعيـد ، فيها الاشتات من الصور والاحداث والذكريات .

كان خيال «عربي» يتركز دون وعي حول تلك الظلمة الداجية ، مـن تلك الليلة التـي كانت تطوي في جلبابها القاتم معالم «حيفا» كلها ، فهي كاللوحة الطامسة لا أثـر لها ، لولا صرخات متقطعة تنطلق مـن افواه البنادق هنا وهناك ، ولولا صفير متقابل يرتفع بين الحين والحيـن من جنوب المدينة وشمالها ..

ولم يكن حي المرفأالا نموذجامن هذا العدم الشامل، لا تلمح عين من خلاله شيئا ، الا ما يكشفه مصباح يدوي يضغط زره أحد حرس «الارغون» ليتبين ورفاقه مواقـع اقدامهـم ...

وهنا تذكر «عربي» كيف توقف العريف اليهودي ليقص على رفاقه انباء الانتصار الباهر الذي احرزتـه منظمتهم في «دير ياسين» العربية ، ويؤكد لهم ما رآه من بطولة شباب الارغون وهم يستاقون بقية سكانها من النسوة

والاطفال شبه عرايا في تل ابيب .

ولـم يكن هؤلاء اليهود ليعلموا أن هناك كتلـة بشرية هزيلة ملقاة على مقربة منهم تسمع نجواهم ، أوتعي حديثهم،ذلك أن هذا المخلوق لم يكن سوى شبح انسان ألف سكان هذا الحي من يهـود حيفا أن يبصروه صباح مساء ، يستجدي المارة ما يوفر له قوت يومه من الخبز والمخدرات ، وقد عرفوه أبكم لا يحسن نطقا ، حتى كان متعذرا أن يعرفوا هويته من الناس أو الاجناس ..

ووثب خيال عربي مرة اخرى ليمضي مع هذاالمخلوق المحطم سنين ستا الى الوراء ، حيث يراه بين طلبة الجامعة الاميركية في بيروت ، تلميذا ناجحا يتصدر رسمهالجميل لوحة الشرف التي تستقبل الداخلين فـي صـدر البهو الكبير ، ثم لا يلبث أن يراه وقـد فقد مكانه مـن تلك اللوحة منذ القى بزمامه الى فتاة يهودية اقبلت للدراسةمن تل ابيب ، فراح يغرق لياليه في سهرات حمراءيتسلل اليها مع صاحبته في احد منازل «ابي جميل» الارستقراطية .

.. ويمضي«سليم الطاهر» هذافي منحدرهمستسلما « لألفيرا » ذات الشعر الذهبـي ، والعينين الزرقاوين ، والشفتين الورديتين ، وتمتد متعه الى شواطىء تل ابيب، حيث يتعرف والدَها الشيخ الصراف الذي غمره بعطف

حميم انعش آمالــه وشجعه على طلب الارتباط الزوجــي بكريمته ..

والمال عصب الحب في موطن «الفيرا» وعلى سليم ان يوفر لاحلامه الافق الذي يمدها بالحياة ،. وكما وجد في « وادي أبي جميل » من يسعفه بالقروض اللازمــة ، وجد هنا في اصدقاء الصراف خير معين لرغبــاته . وما كان اطيب قلب هذا الشيخ الفاضل ،، واشد حدبه علــى خطيب ابنته .. اذ كان لا يضن عليــه بالكفالة لكــل سند يوقعــه .

وطبيعي ان لا يفكر سليم بالاعتماد على مرتبه ، وهو لا يتجاوز العشر الجنيهات يتلقاها من ابيه آخر كل شهر . وما كان لديه متسع لاي تفكير في ما ينسج حولــه .. لذلــك جاءت الصدمــة شديدة عندما وجد نفسه مطالبا بعشرة آلاف مــن الجنيهات ،، فــي الوقت نفسه الذي كان ينتظره للزواج ! ..

على أن القدر ما لبث أن أدركه بالنجدة ، وكان ذلك في برقية تحمل اليه نبأ وفــاة والده الذي نهكه المرض ، فلم يتمالك الا أن يستشعر الفرج ، وقد حزم امره علــى التحرر من اعباء تلك الديون ، ولو اضطر الى التخلي عن

قسم من «مزرعة التل» التي ورثها عن ابيه ، لينقطع الى ادارة بقيتها في حياة شريفة يكفر بها عن آثام الماضي ..

ولكن سليما كان قد نسي ، فيما يظهر ، أن مزرعته مرهونة لدى كافله الصراف ، بموجب سند رقعه على بياض ، قبل وفاة والده ، وانه لن يجد سبيلا لانتزاعها من يده .

وانتهى الشوط بالفتى الى النهاية المقدورة ، فمضى يضرب في الارض لا يجد من يرأف به من ابناء بلدته،وما كان ميسورا له أن يعيش في وسط عربي لا يكاد يرى فيه من ينسى ماضيه ، فكان نصيبه أن يقضي ايامه هذه شريدا في هذا الحي من حيفا ، ثم لا يجد ملجأ سوى هذا الرصيف الضيق من زاوية مهجورة ، يفترش ارضه كلما جنه ليل الصيف ، وينجحر تحت درج حجري وراءه كلما دهمه زمهرير الشتاء .

اما كيف استطاع هذا الصعلوك المخمور أن يعي اقوال الحرس اليهودي عن «دير ياسين» فذلك مالا يحسن «عربي» تعليله .. ولكنه يذكر أن هذا الابكم ماكاديأمن خطوات اليهود حتى استوى في مكانه ، وكأنما هزه تيار من حياة جديدة فما لبث أن ارسل تنهدة عميقة ، وانطلق لسانه يردد بعض كلماتهم ..

وشهدت جـدران ذلك الشارع ساعتئـذ زجاجـة فيها بقية من الخمر الرخيصة تتطاير اشلاؤها على جنبات الرصيف المقابل !.

... وتتابعت الصفحات المبعثرة ، وخيل الى «عربي» انه يرى خطا طويلا من شيوخ واطفال ونسوة تتقاذفهم شعاب الجبال والاودية ، يزحفون ويزحفون ، وتختلط الاصوات في مسمعه فلا يتبين سوى هدير امتزج فيه الانين والسعال والنشيج .. ثم .. شبح هزيل يجر رجليه في اعقاب هذه الموجة الحية المطردة ، يتساقط حينا .. ويتماسك حينـا ليحمل نفسه على متابعة القافلة ..

ويمضي خال عربي أثر هذا الشبح واذا هناك اخيرا مشاهـد متقطعة .. فيها المشافـي ، وفيها معسكرات التدريب ، وفيها دوي الرصاص .. وانفجار القنابل .. ثم فيها الصخور يتربص وراءها المجاهدون في انتظـار الـزحف .

* * *

وتماوجت في سمع «عربي» همهمات رفاقه من جديد ، تتنفس عنها صدورهم المضغوطة ، فاذا هو يستيقظ مـن

سبحاته ليجد نفسه في موضعه خلف الصخرة ، وليرى عقرب ساعته مشيرا الى الثالثة •• ويحدق في الافق الشمالي منعما في الفضاء يكاد لا يبصر ذلك النجم المترجرج يسكب أشعته ناعمة لينة • وبغتة صافحت عيناه ضوءا احمر يشق جلباب الظلمة ، يعقبه ضوء في لون البنفسج ، ثم آخر في لون البرتقال •• وتلاشت هذه الخطوط اخيرا ، فاذاهو يفتح رئتيه عن نفخة عريضة ، ثم يستل دفترا صغيرا من داخل ثيابه •• وأسعفه شعاع ضئيل من النجم المترجرج فخط على احدى صفحاته الاخيرة هذه الكلمات : «الساعة الثالثة وعشر دقائق •• باشرنا الزحف على مزرعة «التل» احس عزما كبيرا ، ونشوة غريبة •• إنها أسعد لحظة في حياتي» ••

وهمس «عربي» في اذن وكيله (سمير) : في اتجاه التل •• اضبطوا اعصابكم • لا اطلاق قبل اجتياز الاسلاك» ••

وبدأت سفوح التل تستشعر انسياب الفتيان يحيطون بها في نصف دائرة ، ولما باشر عربي ورفاقه قص الاسلاك كان جحيم من الرصاص ينصب من أعلى المستعمرة ••ولكن هذا لم يحل دون إعمال المقاطع الفولاذية في الخيوط الشائكة •••

وتخلف على السفح عدد من الشباب تمسكهم جراحهم عن متابعة الزحف ، وعندما لاحت طلائع الفجر كانت ثلة من المغاوير قد اقتحمت قلب (هابوكر) وجعلت تتواثب وراء الجدران ، تتقي بها الرصاص اليهودي الذي اخذ يتضاءل شيئا فشيئا ..

وعلى حين غرة وجد عربي نفسه تلقاء مغامرين من جنود الأرغون، يطلقان قذائف التومي يمنة ويسرة ، وكان من حظه ان حجبه القدر عن أعينهما في اللحظة الاولى فترك لسبابته ان تحرك الزناد ، فاذا أحدهما يتخبط بدمه ، وأدار فوهة رشيشه الى الآخر، ولكن جمودا مباغتا امسك يده ، وكاد يذهل عن حرج الموقف، ولم تكن بغتة اليهودي اقل اثرا فاذا جمود مماثل يستحوذ عليه .. واذا صرخة غريبة تنطلق من كليهما :

ـ هـذا أنت ! ؟

ـ الفيرا ! .. أيتها العاهر ! ..

وكانت الكلمتان كافيتين للتفريج عن تلك الدهشة ، وكأنهما استعراض خاطف لماض طويل رهيب .. فاذا هما يرتدان الى وعيهما في لحظة ، وفي لمحة واحدة تتحرك السبابتان فاذا الفتاة هاوية لجنبها ، يتدفق الدم من فمها

الوردي الصغير • ويكب (عربي) علــى وجهه يمـــج دم صـــدره الممزق ••

* * *

وسكت الدوي • وذهب نفر من المجاهدين يفتشون عن قائدهم الحبيب ، بعد ان وزعوا قواتهم على متاريس المستعمرة ، وكان من حظ الوكيل خالد أن يقع على دفتر (عربي) فوق بقعة من الدم فجعل يتبع اثرها حتى انتهى الى مقبرة القرية القديمة •

وهناك الفى قائده منطرحا على أحد القبور يعانق شاهدته الرخامية ، ولم يتمالك خالد أن يأخذ بيده يجس نبضه ؛ ويضع سمعه على صدره ليتحسس من حركة قلبه، ولكن الامل كان في نهايته ، وفي صعوبة كبيرة استطاع أن يستشعر بقية النفس التي تمسك الحياة على صاحبه •

وارسل عربي الى وكيله نظرة كأنها الابتسامة •• ثم سمعه هذا يسأله في خفوت :

ــ هل طهرتم المزرعة من العدو !

ــ أجــل ••

ــ الحمد لله ••

واخذته غشية الموت ، ومع النفَس الأخير ألقى في أذن هذه التمتمات الراعشة !

«اجعلوا قبري هنا .. في حضن ابي» ..

وشدما دهش خالد ورفاقه حين علموا أن قائدهم الشجاع هو «سليم الطاهر» الذي اسلم هذه المزرعة الى اليهود . ثم لم يمت حتى اطمأن الى استخلاصها من اليهود ! .



أصابعُ القدَر

حدث هذا قبل ربع قرن ، يوم عقد «الحاج عبد الله» زواجه على فتاة من احدى القرى المجاورة لقريته ، وما ادري من اين جاءه لقب الحاج فانا لا اعرف انه كان من الحاجين ولكنني ادركته يحمل هذا اللقب منذ طفولته .

ولم يكن هذا الحاج يومئذ شيئا مذكورا بين اغنياء القرية ، فكل ما يملكه بيت متواضع بل حقير من هذه البيوت التي يسكنها معظم الفقراء من أهل القرى ، الى جانب مساحة صغيرة من الارض ، في بعضها شجيرات من التين والزيتون ، وسائرها عار .. يحرثها بيده ، ويزرعها ذرة أو شعيرا ..بيد انه كان يمتاز بنشاط يدعو الى الاعجاب ، ووراءه طموح لا يرويه الا أن يتسع ملكه حتى يشمل القرية بأجمعها . وكان رأس أمانيه أن يظفر بزوجة تحقق له بعض رغباته بما يكون لها من ارث واسع. وكأن القدر كان على موعد معه في ذلك ، فيسر له أولى

هذه الاماني اذ وصل حبله بتلك الفتاة . التي كانت وحيدة ابويها . فجاءه من هذا الزواج ثروة حسنة من أراض كانت ملكا لوالدها في قرية الحاج ولكنها لم تكن لتأتيه في يسر . فقد سبق أن وضع لاصطيادها خطة محكمة بدأت بالتعفف عن أي مطمع حتى اذا زفت اليه الفتاة جعل يرمي شباكه . فهو حينا يهجرها وحينا يجلدها ، وآنا يطردها وفي كل مرة تكون الفدية حقلا او قطعة من الارض ، حتى اتى بذلك على آخر ممتلكات والدها في قريته ..

ووضعت الزوجة المسكينة ولدها «حميدا» في جو محموم من العذاب لم ينته الا بموتها حين وافاها الاجل ، ولما يتجاوز ابنها الوحيد هذا السادسة من عمره ، وكان والداها قد سبقاها الى القبر ، فامتدت املاك الزوج مرة اخرى الى القرية الثانية ، بما اصاب زوجته من تركتهما..

وكان على الحاج عبد الله أن ينتهزها فرصة للبحث عن ثروة جديدة من امرأة جديدة ، فلم يلبث أن وافاه القدر بما أراد ، فاذا هو يعقد زواجه الثاني على فتاة من قرية ثالثة ، ولكنها كانت أخصب ثروة من سابقتها ، اذ كان أبوها الشيخ سيد قريته ، وانما دفعه الى تزويج ابنته من الحاج عبد الله سببان : أحدهما ان ابنته قد تجاوزت العقد الرابع دون أن يتقدم أحد لخطبتها ، وذلك لما عرفت

به من حماقة كاد لا يسلم منها امرأة أو رجل من القرية.
وثانيهما أن الحاج كان قد حقق الكثير من بغيته ، فهو
اليوم صاحب اكبر قسم من املاك القرية، وليس هناك بيت
غير مدين له ، أو راهن لديه بعض ممتلكاته ، حتى
الشيخ نفسه لم يستطع النجاة من حبائله ، فهو مدين له
بمئتي ذهب ، لم تنقص فلسا واحدا على الرغم مما قدمه
له من فوائد تجاوزت اصل الدين خلال خمس سنوات ..

وهكذا تم زواجه الثاني ، وما لبث الا قليلا حتى كان
يضع يده على معظم أملاك الشيخ الذي لقي وجه ربه .

ومرت خمس سنوات لم يرزق الحاج خلالها
أخا لحميد ، وضاقت الدنيا في عين الزوجة المحرومة ، فقد
صور لها الوهم أن حميدا هذا وارث حتما كل هذه
الارزاق الوافرة ، حتى نصيبها من تركة ابيها ، ولم تعد
تأمل البقاء بعد زوجها ، بل كأنها ايقنت انها سابقته لا
محالة الى الموت، ولا سيما بعد أن رأت مصير ضرتها السالفة،
وهي قد طالما سمعت الناس يقولون «المكتوب يقرأ من
عنوانه».. وها هو ذا عنوان الكتاب قد قرأته جليا في
موت أم حميد .. وهذا يعني ان الحاج عبد الله سيشيع
النساء واحدة بعد أخرى الى القبر، فالنهاية اذن محتومة،
وهي ان حميدا سيكون صاحب كل هذه الخيرات دون
منازع ! .

وشد ما آلمت هـذه التصورات قلبها .. فاذا هـي تنفجر بالغضب والنقمة على حميد لا تجد متنفسا لكرباتها الا في الكيد له ، ولم تعد العصا وحدها شافية لمايضطرب في صدرها من الحقد ، فهي لا تكتفي بأن تداعب بهـا جسده الصغير بين الفينة والفينة ، بل طالما قذفت بالعصا جانبا وأقبلت تعضه اينما أصابته ، وبخاصة في خديـه اللذين اصبحا يحملان ارقام اسنانها واشكالها .. ومـا كان لابيه أن يحول دون هذه الكوارث تنزل بابنه ، فهو ليس أقل منها ضيقا به ، واستثقالا لظله ، وقـد شاء أن يخفف عنها ، فأسلم ولده الى خطيب القرية ، يعلمه قراءة القرآن في مدرسته المتنقلة تحت ظلال الاشجار ، ولكن هذا لم يزد الطين الا بلة ، اذ كان من سوء طالع حميد أن تفتح ذكاؤه بسرعة في هذا الافق الطلـق ، فمضـى يلتهم الجزء تلو الجزء من القرآن ، ومضى الشيخ الخطيب يسرف في اطراء تلميـذه الجديـد اينما حل مـن بيوت القرويين ، ويعرضه على الناس يسمعون لقراءته ويعجبون بنغمته ، مما ضاعف أسى الزوجة ، فأصبحت لا تطيق رؤيته في البيت ، ولا ترضى بارساله للدرس ..

وهكذا جعل حميد يقضي ايامه في رعايـة الماشية ، بعيدا من البيت ، يغادره مع الفجر ، ولا يعود اليه الا مع الغروب . على انه لم يكن لينسى أن يحمل نسخة المصحف

في الكيس الذي يضع فيه طعامه اليومي من الخبز والبصل أو البندورة ..

وتكر الايام والشهور ، ويكبر حميد وتكبر معه سوءاته التي تصنعها اوهام خالته، فتكبر العقوبات. ولكن شاء الله أن ينقذه فجأة من اكثر هذا العذاب . وكان ذلك يوم أحست الخالة من نفسها مطالع الحمل .. وتمت مشيئة الله، وولدت «فطوم» طفلها الأول، الذي أراد القدر أن يكون وحيد أمه .. وغمر البيت انقلاب عجيب ، لم يكن قليل الاثر في حياة حميد ، فلأول مرة منذ ثلاث سنوات سمع صوت خالته النفساء تدعوه باسمه بعد أن كاد ينساه وراء لقب «مكروه» الذي ما كان ليسمع سواه في بيت ابيه طوال هذا الزمن ! .

وجرؤ حميد على الدخول الى الغرفة التي كانت محرمة عليه . وتقدم الى مقربة من سرير خالته حيث كانت متمددة فوق الحشايا ، فسمعها مرة أخرى تدعوه ليدنو منها ، وهناك أحس لاول مرة كذلك بذراعي امرأة تضمانه منذ أن فقد ذراعي أمه ، ثم قبلة باردة تمس خده في موضع العضات السابقة نفسها ، فلم يتمالك أن استسلم الى غمرة من بكاء ، يقطعه نشيج حزين ، وأصغى الى كلمات خالته الرقيقة ، تدله على اخيه الجديد ، الذي تريد منه أن

يحبه من كل قلبه ..

ووجد حميد نفسه يكب على الطفل ، يقبله ويشمه ، وشعر أن يدا خفية قد مسحت كـل شقائـه الماضي ، وامتدت الى قلبه تحفر على جوانبه صورة «جميل» أخبه الذي وهب له كل هواه منذ ذلك اليوم .

* * *

ما كان حميد ليعلم ، ما خبأ له القدر .. وكذلك خالته ما كانت لتعلم أن مثل ذلك الشعور السعيد ، الذي طغى عليها يوم الولادة ، من شأنه أن يفارقها بعد ايام .

لقد عادت حليمة الى عادتها القديمـة ، وعـاد لقب «مكروه» يأخذ مكانه الطبيعي محل «حميد» وكان الطفل جميل يشب في صحة وسرعة ، ويشب معه في قلب أمه شعوران متناقضان :حب جارف نحـوه وبغض قاتـل نحو أخيـه ..

غير أن حميدا ، وقد ألف جوه الطبيعي المحموم ، لم يتلق في استغراب زوال سعادته العابرة ، فرجع الـى ما كان عليه من رعاية الماشية ، ورضي كشأنه بالنفي عـن الغرفة الخاصة بخالته ، بيد أن نزوعا قويا كان ينمو اثناء

ذلك في ضلوعه فلا يقوى على تجاهله أو استبعاده • لقد كان يحس حنينا عنيفا الى اخيه الصغير طالما دفعه الى التطلع داخل غرفته والى التسلل نحو بابها خفية ، ليستمع الى مناغاته أو ليمتع بصره بطلعته •• ولكـن ذلك كثيرا ما كلفه غاليا لان أم جميل لم تكن لتفهم من هذه المحاولات سوى انها تعبير عن نية خبيثه يبيتها حميد لولدها ! •• ولم ينكر عليها زوجها هذا الظن بـل وجد في نفسه مـا يؤيده فاستعد لكل طارىء ، واخذا يقابلان كل ظاهرة من حميد بما تستحقه من النهر والضرب ، وهكذا حـرم حميد رؤية حبيبه الا في الفترات المتقطعة ، حين يتاح له ان يبصره عن بعيد في حضن الخادم أو بين اترابـه مـن صبية القرية ••

ويظهر أن جميلا لم يكن على رأي ابويه فهو لايكاد يبصر بحميد ، في عباءته القصيرة القذرة وسراويله الاغبر الممزق ، حتى يصفق بيديه ويهتف بملء حنجرته الصغيرة: «متلوه •• متلوه !••» ويهم بالانطلاق نحوه ، ويقف له حميد فاتحا لاستقباله ذراعين لا تلبثان أن تنطبقا على هواء •• اذ تخطفه امه أو تطير به الخادم الى حيث تنجو به ، غير مشفقه من بكائه ، ولا عابئة بلكماته وركلاته •• ويجمد حميد مكانه لحظة شارد الذهن حائر النظر ، ثـم لا يلبث ان يمسح بظاهر يده عينيه المغرورقتين ، ويطلق

من صدره زفرة طويلة ، ثم يمضي على غير هدى الي مأواه الحقير بجانب الخم !.

ويصلب عود حميد مع الايام . ويتفتح شبابه الجميل كالزهرة الناضرة تشرق عليها الشمس في مزبلة منبوذة ، فتتطور مهمته من راع الى عامل ينقل السماد من حظائر الماشية الى الحقول على بغلة زرقاء ما لبث أن وهب لها من حبه مثل الذي وهب لكلبه الامين من قبل .. ذلك الكلب الذي ابى أن يفارق رفيقه حميدا ، فبقي في صحبته مع البغلة الجديدة يتنقل معه بين البيت والحقول ، وينام على مقربة من فراشه مرسلا نباحه في مسمع حميد ، كلما لامس اذنيه حس أو أخذت عيناه مشهد شبح في الظلام.

وكان من حظ حميد أن يستمر له هذا النوع من العيش بين احضان الطبيعة ، بعد أن حرم حضن والديه، ولعله كان سعيدا بذلك على الرغم من كل شيء ، فهو قلما سمعه أحد يتذمر أو يشكو ، بل ربما لم يشك قط من حياة لم يعرف خيرا منها طوال الاعوام الخمسة عشر التي اعقبت وفاة أمه .

ولكن سرعان ماجاءه القدر بضربته الكبرى ، وكان ذلك ذات مساء اذ أقبلت خالته كالضبعة الكاسرة تعمل عصاها بجلده، وتنهش عنقه باسنانها فلا يطيق الا أن يدفعها

عنه في غير عنف ، غير انها كانت دفعة ذراع خشنة حشما العمل عضلاتها قوة لا تستطيع ان تضعف مهمـا يترفـق صاحبها ، فاذا المرأة تهوي على ظهرها في أرض الصيوان، واذا كبرياء المرأة التي ما اعتادت منه مثل ذلك قبل اليوم تثور وتثور فتجرف في طريقها كل اثر للوعي ..

ويقبل الزوج على صراخ زوجته يستوضح الخبر ، فيسمعها تتهم ابنه بمحاولة افتراسها عنوة !..

وما كان الحاج ليؤمن بمثل هذه التهمة وهو الذي عرف مقدماتها وتوقعها من زمان . فجعل يخفف من ثورة المرأة ويعدها بالانتقام العاجل من ذلك المتطاول .. ثم لم ينقض ليله ذاك حتى كان قد وضع مع زوجه خطة الخلاص من هذا الذي لم يعد من سبيل الى احتمال وجوده ..

وما هي الا أيام حتى كان حميد على ظهر الباخرة في فوج من المهاجرين تبخر بهم العباب الى الديار الاميركية..

* * *

كـان غياب حميد فرصـة سعيدة لام جميل اتاحت لاحلامها أن تتنفس في فضاء لا نهايـة له ، وهـا هو ذا جميل يُصنع على عينيها كما تشاء ، أو كما يشاء خيالها

في عيش لا حد لرغده .

وهكذا اطمأنت الى مصيره المرجو ، فهي تنظر الى جميل من خلال المستقبل ، فتراه الآمر الناهي في مجموع القرية ، لا ينافسه منافس ولا يعكر صفوه مزاحم ..

ولم يفتها التقدير لما رأته من اقبال القرويين على المدارس ، فما زالت بأبيه حتى اقنعته بارساله الى مدرسة المدينة ، حيث التحق بها تلميذا داخليا ، وكان ذلك من حظه اذ أتاح له الجو الجديد مجالا طيبا لنمو مواهب الخير في نفسه ، فاذا هو مخلوق آخر غير الذي أراده أبوه..انه لرقيق الحس ، متواضع النفس لم يبطره الغنى ، ولم ينسه المال حق المحرومين من رفاقه ، فهم اخوانه في السراء والضراء ، يشركهم في كل ما يتلقاه من هدايا امه ، ويواسيهم بكل ما يملك من قوة ، لذلك كان حبيبا الى نفوسهم جميعا.. على أن المؤسف أن جميلا لم ينه الفصل الثالث من دراسته الابتدائية حتى فاجأة مرض شديد ، لم يلبث أن قضى بانسحابه من المدرسة ! ..

ووجد الجرثوم المغير في جسده المدلل مرتعا خصبا للتغلغل والتطور ، فاذا هو فريسه لادواء مختلفة ، بعضها في الصدر ، وبعضها في الامعاء ! ..

وراح جميل يتنقل بين عيادات الاطباء والمشافي ،

واصبح جسده المنهار مسرح التجارب لاشتات العقاقير ،
ثم ما لبث الطب أن اعلن افلاسه ، وفقد المال سره الفعال ،
فلم تغنه الآلاف المؤلفة من الذهب والاوراق المالية ، عن
فقر في الدم لم يجد العلم سبيلا الى تداركه، ثم ابت والدته
أن تدعه لتجارب الاطباء ، وهي ترى الى جسده يتلاشى
نفسا في نفس ، فأكرهت اباه على العودة به الى القرية ،
ومن ثم اخذت تطوف بابنها بين مختلف المزارات المشهورة
بشفاء المرضى ، ولكن عبثا أرادت ، ولم يعد من الممكن
نقله فاضطرت الى تسليمه للفراش ،حيث جعلت تستدعي
له المشايخ من كل مكان ، واخلدت هي الى الصلاة تتمتم
بها حول سريره صباح مساء .

وكان جميل يحس دبيب الأجل يتمطى في جوانحه ،
فلا يروعه ذاك ، بل لعله واجد فيه خير منقذ من اوجاعه
المبرحة .. ولقد ظل طوال ايامه الاخيرة حاضر الوعي ،
لا يفوته شيء مما حوله ، وكثيرا ما كان يعرب عن ضيقه
بهذه التعاويذ الثقيله ، تنصب على مسمعه بين الوقت
والوقت ، فيتململ في مكانه ويتمتم في اذن ابيه : « لا
فائدة .. انها عدالة الله.. انها عاقبة الظلم الذي لقيه
حميد » .

وكان موت جميل اخيرا خاتمة طبيعية لمأساته الطويلة،

غير انها لم تلبث أن حفرت اثرها في قلب الاب ، فلم يكد ينقضي تمام الشهر ، حتى لحق به •• وبقيت الام وحدها تتجرع غصص العذاب ، على انقاض احلامها المحطمة••

* * *

وكرت الايام في طريقها ، ولم يكن مناص من دعوة المهاجر المنسي لتسلم حقه من الارث الكبير ، فأبرق اليه مختار القرية يطلعه على الواقع •• ولكن حميدا الذي اوجعه موت ابيه ، وفقدان اخيه ، لم تدع له اعماله التجارية الكبرى فرصة الحضور الى الوطن ، فاكتفى بتعزية حارة ابرق بها الى خالته ، ثم اردفها بتفويض يجيز لها حق التصرف بمجموع التركة طوال حياتها، على أن تقف حصته بعد وفاتها على انشاء ملجأ للايتام يحمل هذا الاسم الذي لا يستطيع أن ينساه : «جميل الحاج عبد الله» !

* * *

حاكم نبيل

كان الفارس الاسمر يشق طريقه الضيقة بين الصخور في اناة ، والى يمينه جندي تركي يتنكب بندقيته الالمانية ، ومن ورائهما جندي آخر في مثل زيه ، وكان من العسير ان تتبين فرق ما بين الثلاثة ، سواء من حيث الخيول او الازياء ، لولا تلك السمرة المهيبة تضفي على وجه الاول لونا من الوقار المؤثر ، يزينه شاربان غليظان وعينان نفاذتان ، الى جبهة عريضة ، وهيكل متين ملتف ، ينبئك برجولة لا يفوتها الحزم والتصميم ..

وكان الصمت منتشراً على ما حولهم ، لا يكاد يعكره سوى وقع حوافر الجياد ، تضرب الحجارة وتثير الغبار ، وقد اخذت الشمس تطل عليهم من وراء الجبل الشرقي ، فتمسح عن جوانبه قطع الظل ، لتتسرب الى بطن الوادي الايمن ، حيث تستقر بانتظار المساء ..

وخلت السفوح من اثر الناس الا اشباحا من

القرويات ، يظهرن هنا وهناك بين حين وآخر ، فاذا مر بعضهن بهؤلاء الثلاثــة سمعن تحيــة الفارس الاسمر ، تنسكب على آذانهن في مزيج من الصلابة والرقــة •• ثم يعــود الصمت فلا يسمع سوى حركــة الحوافر وحفيف النسيم الحزين ••

وكان كل ما في الطبيعة ميتاً او شبه ميت ، فقد بدت السفوح عارية في جلدهـــا الاحمر ، مكشراً عن الحجارة كأنه فم وحش جائــع ، فلا خضرة ولا عشب ، الا بعض الطفيليات البريــة اليابسة تتمدد في احضـــان الحقــول الخاوية ، ولولا تلك الغابات القليلة مـــن اشجار البلوط تنتصب حول بعض القباب من المزارات في اعالي الهضاب ، وفي مداخل القرى الصغيرة ، لما كان هناك اي أثر لوجود الانسان ••

وكأن كآبة المكان قد أثرت في نفس الفارس الاسمر فهو يرسل عينيه المهيبتين بين هاتيك المشاهد ، وفي بريقهما وحي من الالم لا تحسن تفسيره الكلمات ••

وفجأة اشرف الثلاثة على سهل منبسط بين جبلين ، كأنه بستان من نخيل يضحك وسط صحراء عابسة ، وقد تجلت في مدرجاته الجبلية جهود هذا القروي الصابر •• ولكنه كان سهلا اجرد كذلك •• لا تلمـــح اثناءه ظلا ،

كأنما فارق عماله قبل موسم الحرث ..

ولاحت على مقربة من السهل مجموعة منازل بيضاء تغفي على أحضان السهل المشرف ، وكانت هي الاخرى مغلقة الابواب لا ترى خلالها شبحاً يتحرك ، كأنها جذوع من الجميز جردت من اوراقها وفروعها ، لذلك كانت دهشة الفارس جلية عندما احس سمعه لغطاً ينساب من وراء الهضبة القريبة، ثم ما لبث ان تبين من خلاله عويل الاطفال واصوات النساء ...

ووجد الرجل نفسه بعد قليل وسط جماعة من الشيوخ والنسوة والاولاد القرويين عراة وانصاف عراة .. ولم يكن غريباً عليه ألا يجد بينهم شابا ، فهو أعلم الناس بمصير اولئك الفتيان الذين ساقهم نفير الحرب الكبرى الى سوح القتال تحت كل كوكب ، فهجروا قراهم مكرهين ، لينتشروا ما بين الاناضول وقناة السويس ، تاركين أهلهم لرحمة القدر وعدالة الدولة وعمالها من جنود وموظفين .. ثم لهذه الحفنة من كبار الاغنياء ، الذين قدروا على افتداء انفسهم من الجندية فخلا لهم وجه الارض يصنعون ما يشاؤون .



ووقف الفارس المجهول على القوم ، وقد اجتذب بصره منظر تلك الثمار المنتفخة التي تشبه الرطب ، تصبها النساء من قدورهن الفخارية على اوراق الدلب ، وحولها الاطفال يتدافعون اليها يسلخونها من قشورها، ويلتهمونها في شراهة . ولم يتلبث الا قليلا حتى علم انها ثمار البلوط المسلوق ، فاذا قشعريرة تسري الى جسده .. والتفت الى النسوة يستوضح السبب في اقبالهن على هذا البلوط دون غيره من الطعام ، ويتعرف نسبتهن وقريتهن ، وسرعان ما جاء الجواب في اختصار ، ولكنه كان مفيداً بليغاً .. اذ ادرك من وراء الحروف القليلة اشياء كثيرة .

لقد كان هؤلاء هم اصحاب المزرعة المغفية في احضان السفح القريب ، ولكنها خرجت من ملكهم قبل اسبوع فقط ، اذ اضطروا الى بيعها لكبير هذه الناحية ، مقابل قنطار من الذرة ، وآخر من الكرسنة ، حشوا بالاول بطونهم الخاوية ، وقدموا الآخر لبقراتهم الثماني ، التي انتقلت معهم انى هذا المهجر ..!

وكأن قلوبهم قد ربطت بهذه المزرعة ، فآثروا ألا تغيب عن عيونهم ، لذلك اختاروا منزلهم الجديد على مائها ، يشبعون فضولهم بالنظر الى مراتع طفولتهم ومدافن آبائهم واجدادهم وآمالهم ..

وكأنما وجد الفارس في قصة هؤلاء الطرداء ما أثار اهتمامه ، فاذا هو يشير الى ثاني رفيقيه ، فيأمره بان يفرغ لهم كل ما على دابته من طعام ، لا يستبقي منه سوى ما يكفيه ورفيقه لوجبة واحدة ، ثم يعود ادراجه ، ومن ورائه رفيقاه صامتين ..

وما كان طرداء المزرعة لينتظروا خيراً من سؤال الرجل اياهم عن امرهم ، ولكن ما ان رأوا الى هذه الارغفة ، وذلك الزاد القليل من الطحين والعدس واللحوم بين ايديهم ، حتى اقبلوا عليها ذاهلين ، وقد علموا انهم امام رجل من نوع آخر غير الذي عرفوه من جنود الدولة. وسرعان ما تصاعدت الضراعة من قلوبهم تطرق ابواب السماء لهذا المحسن المجهول .. على انهم ما كانوا ليأملوا كذلك باي فرج يأتيهم على يديه غير هذا الاحسان العابر ، لانهم ما كانوا ليعلموا ان الرجل هو « رشيد طليع » المتصرف في لواء اللاذقية ...

* * *

لم يُرح رشيد طليع فرسه الا ريثما قضى صلاة الظهر من ذلك اليوم ، وترك لطاهيه وحارسه ان يتناولا غداءهما ، وان يعلفا افراسهم ، فلما وافاه المساء كان في بانياس

الساحل ، حيث قضى ليلته في مقابلة الموظفين يوجه اليهم ملاحظاتـــه ، ويزودهم بتوصياته • ولما احتوتــه غرفــة القائمقام في صباح اليوم التالي كان في خلوة مع (الكبير) الذي ارسل بطلبه في الليل الفائت •

واثبت رشيد عينيه النفاذتين في وجه الأغا قبـــل ان ينبس ببنت شفة ، فلم يسع هذا الا ان يطرق برأسه •••

وغرقت القاعة في صمت ثقيـــل مرهـــق ، وتفاعلت الظنون في صـــدر الآغا الكبير ، الذي تضاءل حتى بات كالشيء الصغير التافه ، وهنـــاك جلجل صوت ابن طليع مدويا في فضاء القاعة : « ما شأن قرية (•••) وما بال اصحابها ؟!•• »

وادرك الآغا المتضائل سر دعوته ، فجمجم قليلا يبتلع ريقه الجاف ، ثم رد في تواضع وهو يجمع طرفي سترته : « سيدي •• عفوك •• لقد اشتريتها ••• وتخلوا لي عنها بمحض اختيارهم •• »

ولكن سرعان مـــا جـــاءه الجواب ينضح بالتهكم المخيف :

« بمحض اختيارهم !•• وكم دفعت لهم ثمنها !! »

ـ « مئتا ليرة عثمانية .. »

نطق الآغا بهذا الرقم لفوره ، وكأنه كـان مهيئا له منذ بعيد ، ولعلـه حسب انـه الجواب الحاسم لكـل محاولة .. ولكن الحاكم الصارم لم يقـم لكلمته وزنا ، بل ما اسرع ما قذفه بالحقيقة :

« هذا غير صحيح .. انه قنطاران من الحبوب .. انه طعام اسبوع فقط .. يا لك من ظالم ..! »

ـ سيدي ..! »

ـ « حسبك !.. تريد ان تذكر لي وثيقة البيع .. اليس كذلك ؟.. هذه حيلة لا تنطلي على سواك ، احتفظ بوثيقتك ، واعد المزرعة لاهلها .. »

ـ « سيدي ..! »

ـ « قلت لك لا سبيـل الى المكابرة .. ان البيـع فاسد .. انه خيار بين الموت جوعا وحياة اسبوع .. »

وعاد الصمت يعصر القاعة من جديد ، ثم ما لبث ان تبدد حين عاد رشيد الى الكلام :

« ويحك يا هذا ..! ابلغت بك القسوة ان تستحـل

هلاك قومك لاشباع نهمك !•• يا له من استغلال شائن •• ما كنت احسبني واقعا عـلى مثله !•• اسمع •• انـني سأساعدك على تحقيق خطة كريمة فيها الخير لك ولقومك•»

وأرهف الآغا أذنيه الطويلتين ، وقد فقد قياد اعصابه وأصبح في حاجة الى أي حل ••

قال رشيد طليع :

« سأفتح لك حساباً في حبوب الدولـة لتمـد القوم بالبذار اللازم ، وبذلك يتمكنان من استثمار أرضهم حتى يوفوك ما اسلفتهم ، ثم تسدد ما عليك للدولـة من فائض محصولهم •• كيلا بكيل •• لا سبيل غير هذا • »

القى رشيد هذا في نبرة خطابية حاسمة ، ولقد حاول الآغا ان يجادل ولكن ما ان نظر الى عينيه حتى سقط في يده ، والفى نفسه عاجزا عن الكلام ••

وما لبث المتصرف ان نهض عن مقعده ايذاناً بختـام الحديث •• وقبل ان ينصرف الرجل سمع رشيداً يأمـره بالتوقيع على وثيقتين ، كانت احداهما سند دين للخزينـة بمبلغ ثلاثين جوالاً من الحبوب ، وكانت الثانيـة صورة اقرار بالتنازل عن حقه في المزرعة لاصحابها •

* * *

... وكان صباح سعيد .. يوم جاء بشير المتصرف يرد الطرداء الى مزرعتهم .. ولكنهم ما لبثوا هناك سوى ثلاث سنوات .. اذ اضطرتهم فرنسة بعدها الى اخلائها مرة ثانية .. والى الابد !



يأس ورجاء

كان « ابو علي »يتلقى سخرية رفاقه بكثير من الالم المكظوم ، وقد سبق ان ألف منهم مثل ذلك طوال ستة أشهر في المدينة ، فهم لا يكادون يرونه في مقهى او يقعون عليه في الطريق حتى يستقبلوه بهذه العبارات : « كيف جماعة الطميرقية ؟ كيف اصحابك الطميرقيون ؟ لا تحزن يا أبو علي .. هذه حال الدنيا .. من هالك لمالك لقباض الارواح » . الى آخر ما هنالك من اشباه هذا الكلام المبطن ، ولكنه كان مستطيعا ان يتحكم في أعصابه فلا يبدو عليه اي امتعاض من ذلك ، وقد ساعده على هذا التجلد برودة مزاجه وبساطة تعابيره ، فلا يزيد على ان يردد لهم قول المثل الآخر : « اعمل الخير وارم في البحر .. » على انه كان في الواقع يطوي ضلوعه على قلق كثير وجزع مرير ، ولكنه آثر مع ذلك ان يكبس الجرح بالملح فلا يتيح لهم ان يتزيدوا من شماتتهم به ..

وها هو ذا الآن يجد نفسه مرة أخرى فريسة لهـذا التقريع الممض . وقد أصبح من النوع الذي لا يطاق . اذ كان في الماضي يتلقاه من الواحـد او الاثنين في فترات متقطعة . اما اليوم فقد جمعتهم الظروف في موضع واحد فجعلت منهم جبهة متحدة عليه .

لقد خرج « أبو علي » مع هؤلاء الجماعة من زملائه التجار ليحصلوا ديونهم من زبائنهم في هذه النواحي حسب عادتهم في مطلع الموسم . وقد جعلوا يتنقلون من قرية الى قرية فيستقبلهم هؤلاء بالضيافة الكريمة وبالاموال المستحقة عليهم مقرونة بكثير من الثناء .. وكان لأبي علي مقـدار لا بأس به من الديون في بعض هذه القرى . فأسهم بحصته من هذا النجاح ، ولكنه كان الى جانب ذلك عرضة للتنغيص المستمر ، فهم لا يكادون يخلون للمبيت حتى يجـدوا في قضيته مادة لسمر طويل لا ينتهي الا بان يعقد النوم ألسنتهم . ولما بلغوا مرحلتهم الأخيرة في قرية « الأندروسة » بجوار « الشيخ بدر » احيوها ليلة ساهرة تفننوا فيهـا باختراع النكات الجارحة لقلبه ، وقـد انقسموا فريقين احدهمـا للهجوم والآخر للدفاع ، فاذا ارسل الاول سخريته اللاذعة من غباوة (ابو علي) نهض الثاني لردها بنكتة أشد لذعا ! . ظاهرها الانتصار له وباطنها التهكم منه . وكان مدار الهجوم تعزية ابي علي بخسران الذهبيات المئتين ، بينمـا مـدار

الدفاع اعتبار هذه الخسارة تضحية مقصودة عمد اليها باختياره وبدافع من الانسانية الخالصة لوجه الله !

ولم يجد الرجل قدرة على الصمود بوجه هذه المؤامرة المحبوكة فآثر التظاهر بقبول خطة المدافعين ، مؤكداً انه يحتسب ماله صدقة عند الله ، وحسبه انه كان وسيلة لا مناص منها لانقاذ تلك النفوس من براثن الجوع !

وفي الحقيقة لم يعمد صاحبنا الى التظاهر الا بدافع من القناعة القلبية .. ذلك ان تقديره الخاص كان قد انتهى به الى اليأس من الحصول على ذلك المبلغ ، فهو لا يجهل ما تسامعه الناس من سوء معاملة الطميرقيين ، وهو ليس حديث المعرفة لهذه الشهرة الواسعة التي استحوذوا عليها في سائر هذه المنطقة الممتدة بين انطاكية وطرابلس ، وهو هو نفسه اذا أراد ان ينكر سوء معاملة من أحد الناس لا يجد تعبيراً أفصح عن انكاره من قوله : « وهل نحن في الطميرقية ! »

* * *

ترك ابو علي رفاقه غارقين في غفوتهم وانسل الى دابته يسرجها في كثير من الحذر، فقد خشي ان يتنبهوا له فيعودوا

الى نغمتهم السابقة ليشيعوه بطائفــة من تلك السخريات التي ضاق بها صدره رغم سعة صبره ، ولكن القــدر أبى عليه هذه النعمة ، فاذا حماره الشرير يتمطى عن زفرة طويلة يعقبها نهيق صارخ ، لا يلبث ان تسري عدواه الى رفاقه من الحمير ، فتتجاوب معه في انشودة هائلة •• كانت كافيــة لطرد النوم عن جفون أصحابــه ، واذا هم يهبون الواحــد تلو الآخر لينهالوا على أبي علي بدفعة من تهكمات جديدة تصل ما انقطع من حفلة الليل ••!

ولم يجد صاحبنا من خصم له في هذه المعركة الا ذلك الحمار الفضاح، فأهوى عليه بعصاه، يريد ان يشفي صدره. ثم اقتاده مسرعاً الى الطريق وهو يرفع صوته بهذه العبارة التي أرادها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه : « تأبى يا ملعون ان تفارق اخوانــك دون وداع ••! » ومــا لبث ان اعتلى ظهره وهو يسمع من رفــاقه كلمتهم الأخيرة : (موفق •• موفق يا ابو على •• لا تنس بالله عليك ان تجعل لنا نصيبا في زبائنك الطميرقيين في المستقبل ••!)

وراح أبو علي يقطع الطريق الضيق المتعرج في سفوح السلسلة الهضبية وهو ذاهل عما يمر به هناك ، مشغول بالتفكير في خواطره المثارة •• يتلقى وجهه نفحات السحر باردة ناعمة ، وتتهاوى على اذنيه أصوات الديكة تتجاوب

بها آفاق القرى المبعثرة على جانبي الطريق معلنة قدوم النهار ، دون ان يعي شيئاً من كل ذلك .. فقد غشيته سحابة من شتى الافكار ما لبثت ان تركزت من خياله حول نقطة واحدة ، هي هذه المئتان من الليرات العثمانية الذهبية . ووجد نفسه مدفوعا بقوة من وراء الوعي الى هذا التساؤل : « ترى : أيبلغ الجحود بهؤلاء الطميرقيين الى حد ان ينسوا فضله ويتنكروا له فيبتلعوا هذا الحساب ؟! »

وتتابعت على مخيلته صور هؤلاء القوم ليخلص منها الى جواب سليم ، ولكن عبثاً فقد كان في معرض موازنة دقيقة بين ما اشيع عنهم من اخلاق شاذة جعلتهم مضرب المثل في انكار الجميل ، وبين احسان كبير تبرع به لانقاذهم من مجاعة محققة ..

.. واخذ يستعيد في ذاكرته مشهد اولئك القوم يوم لقيهم وقد تجمعوا على مقربة من حانوته ، ناكسي رؤوسهم . لا يكاد يرتد اليهم طرفهم يأسا وحيرة ، فدعاهم اليه ثم عرف ما هم عليه من فاقة دفعتهم الى هبوط المدينة رجاء ان يجدوا من تجارها من يسلفهم مقدارا من الطحين يسد رمق عيالهم ، على ان يوفوه ثمنه في موسم الحرير ، ولكنهم يئسوا من وجود هذا التاجر الذي يغامر بذلك ،

على الرغم من ان مثل هذا البيع بالدين هو مادة معاملات التجار مع معظم سكان هذه القرى التي تتجر مع المدينة ، ولا سبب لذلك سوى انهم من الطميرقية ••!

وتذكر ابو علي من جديد كيف كان وقع هذا الموقف على مشاعـره ، اذ وجد نفسه بين حالتين متناقضتين •• نزعة انسانية تدعوه الى النجدة ، وحذر بالـغ من عاقبة هذه المغامرة يمسكه عـن الاستجابة لصوت العاطفـة • ولكنه ما لبث ان وجد نفسه اخيرا راغبة في المخاطرة مهما تكن عواقبها ، واذا هو يفتح دفتره القديم البالي ليسجل فيه اسماءهم وطلباتهم •• وما كان ليظنها بالغة مثل هذا الرقم الكبير ، ولكنه صمم على المغامرة ، واراد ان يطبق المثل القائل : « من شرب البحر لا يغص بالساقية » وهكذا شرب ابو علي البحر فعلا ، وابى حتى ان يكتب بهذا الدين اي سند على القوم •• ففي اعتقاده ان الذي يجرؤ على معاملة الطميرقيين ينبغـي ان لا يؤثر السند على الدفتر « فما اكذب من الحبر الا الورق » في مثل هذه الحال •

* * *

وترامى الى سمع الرجل فجأة دوي طبول مقبل عليه من وراء الهضبة المواجهة •• ثم صفير زمور مختلط مع

زقزقة الحجلان المتصاعدة من أعماق الوادي ، فتنبه لشأنه وعاوده الوعي ، ولم يكن قد خبر الطريق الى الطميرقية من قبل ، اذ لم تصل رحلاته السابقة الى هـذه الانحاء ، وانما كل ما عرفه عن هذا الطريق هو اشارة عابرة حصل عليها من بعض الطميرقيين الذيـن لقيهم امس علـى ماء الشيخ بدر ، لذلـك رأى خيراً في ورود هؤلاء القوم اذ سيتعرف منهم موقع القرية فيسلك اليهـا السبيل الخاصة بها من بين هذه الشعاب الكثيرة التي تطالعه ..

وجعل الدوي يزداد وضوحا كلما دنا حمار ابي علي من رأس الهضبة حتى اشرف على الموكب ، وكان موكباً عامراً تلوح فيه كوفيات الرجـال الى جانب اثواب النساء ذات الالوان الزاهية المزركشة بالشرائط ، وامامه الاطفال يتراكضون متواثبين على نغمات الجوقة القروية ..

وترجل أبو علي عـن حماره منتحياً جانب الدرب ليسأل اول قادم عن طريـق الطميرقية ، وقد اعتقد انـه موكب زفاف يقصد الى احدى القرى لمرافقة عروس .. ولكنه لم يكـد يتصل بمقدمته حتى فوجىء باسمه هو يتعالى على ألسنة الصبايا والشباب بين « الشـَّوبشات » والزغاريد : « شباش يـا ابو علي .. الله يديمك يا ابو علي » ..

ووقف صاحبنا لحظة تغمره الدهشة ، غير انه ما لبث الا قليلا حتى أطلت عليـــه وجوه مديونيه من الطميرقيين انفسهم يتقدمون الجماعة ، ليخبروه ان القرية قد خرجت بأجمعها لاستقبال الرجل الذي أنقــذ سكانها من انياب الجوع ٠!



العجل الذهبيّ

كانت رحلة الشيخ « ضرغام » موفقة كشأنها في كل موسم ، فقد بلغ ما جمعه من زكوات اثناء مروره بهذه القرى مقدارا من الحبوب قد يثقل ظهور خمسة من الدواب ، فضلا عن صفيحة من زيت الزيتون وكيس مملوء بعقود التبغ الذهبي المنتقى .. وهو بالرغم من انه لم يسجل غنائمه هذه في دفتر يرجع اليه عند احصاء المجموع فقد كان قوي الذاكرة لا يفوته فائت من حسابه ، يذكر كل واحد من مزكيه باسمه ، ويعرف كلا من البيوت التي ائتمنها على محصوله في كل قرية نزل فيها ، فمن المستحيل ان تضيع عليه ذرة من مجهوداته الناجحة .

وكان قد بلغ آخر حدود المدى الحيوي الذي قدره لنفسه منذ ترك بيته قبل عشرين يوما ، فلم يبق امامه سوى هذه القرية التي تشرف عليه من خلال اشجار البلوط

الجبارة ، التـــي تحيط بمزارها الابيض القــائم في أعلى السفح .

وكان مـــن خطة الشيخ ان يبدأ طوافه ببيادر القرية التي يقصدهــا ، فيلقي نظرات نافذة علـــى اكداس التبن المتخلفة عن الحبوب ، ليتخذ من ذلـــك مقياسا لا يخطىء لمدى الخصب والجدب في موسم الفلاحين ، وعنـــد ذلك اما ان يسكت فيعرف الذين يرونه تقلص امانيه ، واما ان يسبح الله تسبيحة طويلـــة جهيرة فيدركوا ان الشيخ قد صمم على امر !

واطل على مدخل القرية بقامته المديـــدة الشامخة في الهواء ، وقد بدا في ردائه القطني الابيض وعمامته البيضاء القابعة تحت منشفته الصغيرة البيضاء ، واسترسلت بين هذا وذاك لحيته البيضاء الاخـــرى مفروقة علـــى جانبي وجهه ، تعابث الريح اطرافها المفتولة كالضفائر .. بدا في هذا البياض الشامل كتمثال الثلـــج يقيمه العابثـــون في سفوح لبنان ، او كالراية المطلة من بعيد في مقدمة المواكب الصوفية البائدة .

ووقف الشيخ على اكوام التبن لامعـــة على بسيط المدخل كأنها قصاصات الابريز، وقد تبعثر حولها الفلاحون

هنا وهنــاك ، يمصون الدخان ويتجاذبــون الحديث في نبرات مهموسة لم يفت الشيخ الذكــي الفطن مدلولها ، فأسرها في نفسه ، وقبل ان يبــادر القوم بتحية الصباح ارسل تسبيحته المعهودة في مقاطع موزونة كصياح الديكة « ما شاء الله !•• يؤتي الملكَ مَن يشاء وينزعُ الملك ممن يشاء !• »

والتفت الى الفلاحين يسكب عليهم دعواته المباركة : « ألله يعطيكم العافية يا أجاويد •• »

ولكن الشيخ لم يسمع رد تحيته لان القوم كانوا في شغل عن ذلك بما اثارت في صدورهم تلك التسبيحة من خواطر لا تترك مجالا لسواها •• بيد ان صاحبنا لم يفقد من يتقدم ليأخذه بيده عن ظهر الدابة ، فتقدم بدوره نحو القوم يمد يمناه اليهم واحدا واحدا ليتلقى قبلاتهم الباردة، ولينفح كلا منهم دعاء حارا بالرضوان والتوفيق •

❋ ❋ ❋

ومضى الشيخ بين جمهرة من القوم يشقون الطريق الضيقة المركومة بالحجارة الى بطن القرية ، وقــد تخلف عنهم على البيادر من تخلف ، ليغرقوا في جدل عقيم طريف حول الشيخ ، ذلك لان القــوم لم يكونوا جميعاً مــن

المنكرين لفضله ، كما انهم لم يجمعوا على تقديره في ذات انفسهم ، بل كان فيهم من يرفعه الى مصاف الاولياء الكبار فيعتقد النظرة الى وجهه بركة وعبادة ، ويرى في دعواته سرا لا يصمد في طريقه داء ولا بلاء ، وهؤلاء لا يعجزهم ان يقصوا عن اسراره المعجزات الخوارق .. فكم من مريض شفاه بلمسة ، وكم من بناء دكه بلمحة .. وكم من متنكر مكابر عرض له في نومه يحرث به الحقل ويسوقه مكرها تحت النير ..!

وللمنكرين المعارضين كذلك حجتهم التي لا يستهان بها ، فهم لا يرون في الشيخ ضرغام سوى غاصب وقح يستغل بساطة الدهماء ليستنزف دماءهم واموالهم في غير رحمة ، ولا يذكر اسم الله الا ليتخذ منه وسيلة الى اغراضه الدنيئة ، وليوهم السامعين انه من الملائكة المقربين ، وليس هو في الحقيقة الا ذلك الذي عرفه الناس يدخل البيوت فيفرض على أصحابها ما شاء من إتاوة يسميها زكاة ، ثم لا يغادر البيت حتى يكره أهله على التنازل عن كل ما يريده ، كأن مطلبه قدر لا مرد له . وليست هذه من صفات الصالحين الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ، ويفضلون ما عند الله على ما في أيدي عباده الفقراء . ثم هم لا يعدمون وسيلة يسزقون بها فروته ، فتراهم يقارنون بينه وبين الشيوخ الذين يوقنون بصلاحهم ممن لا يقبلون

الزكاة الا ان تأتيهم عن طيب خاطر ، ولا يأخذون صدقة من احد الا ليستعينوا بها علـى الاحسان لذوي الحاجة من المساكين وابناء السبيل •

ولم يكن الشيخ ضرغام بحاجة لمعرفة مـا يقال فيه وما يصدر عليه من مثل هذه الاحكام الغيابية ، فهو اذكى من ان يفوته ما يتحدث به الناس عنه ، ولكنه كان ممن لا يبالون بلغو الحادي اذا كانت القافلة سائرة ، فحسبه ان يكـون اكثر الشيوخ توفيقا لا سيما في مواسم الزكاة • وهيهات ان يتاح لشيخ غيره ان يرجع بمثل مـا يرجع به الى بيته من الاحمال الموقرة ، والجيوب العامرة ، وهو قد اتخذ لنفسه فلسفة اقتنع بحكمتها ونعم فائدتها وهي ان لا يهتم بقولة قائـل سواء كانت معـه او عليه ، واذا ما جاءه رجل ينقل اليه مطعن خصم له ردد علـى مسامعه قول الله : « وعبادُ الرحمنِ الذيـن يمشون على الارض هَونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما •• واذا مروا باللغوِ مروا كراما •• »

وقضى الشيخ أربعة أيام متجولا في بيوت القرية ينعم بضيافة القوم ، وقد أبى على الناس الاسراف في اكرامـه ، فلم يرض ان يكلفوا انفسهم اعداد اي طعام ، مكتفيا بلحوم الديكة من افراخ الدجاج ، لانه مريض وقـد وصف لـه

الطبيب لحم الدجاج مشويا مع الزيت النيء والثوم ، وتورع أن يأكل من هذه الفراخ غير ذكرانها كي لا يفجع مضيفيه بالاناث التي يرجون بيضها .. وكان قنوعا جداً هذه المرة فلم يتجاوز بفريضته على البيت الواحد صفيحة من الحب أو البرغل مع خيط واحد من التبغ الجيد ، ومن ليس لديه الحب والتبغ فحسبه اقة من الزيت ، وحسب الفقير رطلان من التين اليابس .. وهكذا استطاع ان يعدل في مطالبه فلا يثقل غنيا ولا يرزأ فقيرا ..!

ولم ينس في خلال ذلك ان ينفح القوم بشيء من الخير كفاء صنيعهم فأقبل على مرضاهم بالرقى والتعاويذ وبالخيوط القطنية التي أعدها في جيوبه لهذه الغاية ، يربط بها معاصمهم بعد ان ينفخ عليها من نفسه الطهور ، وجعل ينثر عليهم مواعظه الحكيمة في غضون السهرات يرقق بها قلوبهم ، ويثير نفوسهم لعمل الصالحات ناضجا مقرعا .. يعرض على مسامعهم ذكريات السالفين من الذين آثروا الآخرة على الدنيا وحطامها الفاني ، فكان مصيرهم أن انتهى بهم التقمص الى منازل الكواكب ، مرددا على آذانهم قول الله : «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» مفسرا لهم قول القرآن الكريم في أمير المؤمنين : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . » ثم لا ينسى عند ذلك ان يتمثل بالقول المأثور : « أللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين » وما الى ذلك من

أحاديث ومواعظ كانت بنفسها حجة لانصـــاره الموقنين ، وقارعة داحضة لاخصامه المنكرين ••ثم كانت بعد ذلك ذات أثر فعال في تسهيل مهمتــــه ، فلم يكد يجــد من يتردد في اجابته الى رغبته ،، حتى اوشك ان يمتلىء آخر كيس لديه من الزكوات السخية !••

وقد تعجب اذا علمت ان ليس للشيخ ضرغام نصيب من علم أو المام بكتابة ، فهو بالحقيقة رجل أمي لم يدخـــل مدرسة ولا كتَابا ،، ولعله لا يحسن كتابة اسمه ، ولكنه رجل موهوب قد أوتي مــــن الذكاء ما يغنيه عن الدراسة الطويلة ، ولديه حافظة واسعة قلما يفلت منها شيء ،، وهو اذا لم يكن مستظهرا للقرآن جميعه فقــد كان ذا ذخيـــرة كبيرة من آياته التي تسعفه لتحقيق أغراضه ، الى جانــب موسوعة ضخمة من القصص والاساطير وأحاديث الاولين، يحسن عرضهـــا في قدرة ساحرة لا تلبث ان تستحوذ على سامعيه من هؤلاء السطاء فتمتليء نفوسهم اكبارا لعلمه ، وتقديرا لفضله ،، ثم ينتهي ذلكأخيرا الىالغايةالتي أرادها•

ولفت نظر الشيخ ذات مساء عجل سمين أحمر الشعر يتهادى في طريق عودته من المرعى ، فلم يتمالك ان يتساءل عن صاحبه فاذا هو بين الحضور مصغيا الى نفثاته الروائع، فأرسل تسبيحته الطويلة الجهيرة، وانتظرحتى اشرفتالسهرة على نهايتها ، فالتفت الى ربالعجل ليقول : « سنقوم الليلة

بواجب زيارتك يا سيد عبود ، وسيكون النوم عندك ان شاء الله . »

* * *

وكان الشيخ ضرغام بارعا كشأنه أبدا في التمهيد لرغباته ، فلم يكتم هواه نحو العجل، ولم يتمالك ان يمسح على رأسه وان يذكره بخير على مسمع عبود بين الفينة والفينة ، ولكن عبود ، كما يظهر لم يفهم مرامي ضيفه ، او لعله لم يرد ان يفهمها ، فاكتفى بأن اعرب للشيخ عن أمله الكبير بمستقبل هذا العجل الذي يرجو ان يساعده في اعباء الحراثة في حقوله الصغيرة وعند ذوي الاراضي الكبيرة ، بعد ان اضطر لبيع أبيه وأمه ، ليسدد بثمنهما مقدار الغرامة التي فرضتها عليه مصلحة الميرة يوم صادرت من بيته « شوالين » من الحبوب كان قد ادخرهما لعياله قبل ان يحصل على تصريح بهما ، فراح منذ ذلك اليوم يكدح في حفر مزروعاته القليلة بيديه بعد ان ثكل النير صاحبيه ..

وهكذا كان طبيعيا ان يعمد الشيخ الى التصريح بعد التلميح ، فأظهر لعبود رغبته في العجل وحاجته اليه .. وطلب الى مضيفه ان يهيئه للرحيل من الغد ، وما كان عبود ليستحيي في رد مطلبه، فأوضح للشيخ انه لو خير بين نفسه

وعجله لآثر الموت على فراقه . فللشيخ ان يفرض كل شيء الا العجــل ، ولكن الشيخ آثر بدوره ان لا يطلب شيئا الا العجل ، فليست حاجته اليه بأقل من حاجة عبود ..

وعرض عبود على الشيخ فدية سخية ، وهي ان يدفع اليه كل ما في خليته من البرغل ، وفيها ما لا يقل عن صفيحتين ، وان يحمل معه ما تبقى في قربته من الزيت ، وفيها ما لا يقل عن رطل كبير .. وكانت المفاجأة مفزعة عندما أعرب الشيخ عن رغبته في أن يأخذ الجميع : العجل والبرغل والزيت معا ..!

وصاح عبود واقسم على الرفض ، ولم يكن الشيخ ممن يصيحون او يضجون فلم تحرك ثورة عبود غضبه ، بل أكد له في هدوء عجيب ، وهو يخلل لحيته العريضة بأنامله الطويلة ، ويرسل عينيه العمشاوين بنظرة ذاهلة الى الافق البعيــد ، أنه مقيم وخادمه ودابته في بيته حتى يأذن الله بالاجل او يرجع عبود عن قسمه !..

وبر الشيخ بوعده فطوى اياما ستة في ضيافة عبــود حتى كاد يأتي على آخر ديك عنده ، ولم يعد لمواعظ الشيخ ذلك الاثر القديم في صدره ، فأصبح يضيق بصوته وصورته ، وأصبح أشد ضيقا بهذه الاجتماعات التي يهرع اليهــا القرويون في منزله لاستماع احاديث الشيخ والتزود برقــاه وتعاويــذه ..!

وفي لحظة من لحظات اليأس الطاغي اقبل عبود على ضيفه الشيخ ينفض بين يديه البقية الباقية من برغلة وزيته ، ويسوق امامه عجله اليتيم ، لينقذ بذلك نفسه من ثورة امسى يوجس خيفة من مغبتها ، وقبل الشيخ في تواضع هذا القربان ، ولم ينس ان يغفر له ما تقدم من ذنبه ، فجاد عليه بدعوات كريمة ، ثم ارسل خادمه ليعدله دابته ، ويهيىء ما يعوز غنائمه من دواب تبلغها مأمنها .

ورأى الشيخ عبودا مضيفه وهو يقبل فم عجله . ويشم أذنيه ، فعل الاب يفارق اعز ابنائه ، وسمعه كذلك يهتف بصوت باك : « ألله لا يبارك لك يا شيخ ضرغام .. الله يخرب بيتك مثلما خربت بيتي» ..

ولكن الشيخ لم يؤاخذ الرجل على عمله المنكر ، واكتفى بأن يردد قول الله : « وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .. واذا مروا باللغو مروا كراما» ..

وما هي الا ساعة حتى كان الشيخ ضرغام يتقدم قافلة صغيرة موقرة بشتى الاحمال ، لا تزال تكبر بما ينضم اليها من دواب المزارع الاخرى ، حتى أشرف على الجادة وهو على رأس احدى عشرة دابة !

* * *

وكانت مفاجأة غير منتظرة عندما وجد الشيخ ضرغام نفسه وقافلته بين جمهرة من موظفي شركة حصر التبغ وزبانية الميرة قد أخذوا عليه الطريق ، وكان متعذرا أن تصل مواعظه الى قلوبهم المغلقة فتحطمت جهوده كلها على صخرة تصميمهم ، وصارحوه بانهم مكلفون انتظاره ومصادرة ما معه من التبغ والحبوب والدواب ، عملا بأوامر صارمة لامناص من تنفيذها .

وسيقت الدواب بأحمالها الى اللاذقية ، وسمح الموظفون للشيخ أن ينجو بعجله وقربتيه المفعمتين زيتا توقيرا لصفته الدينية ، بعد أن أخذوا توقيعه على ضبط المصادرة .

ومشى الشيخ المحزون يقطع بقية الطريق الى قريته مطرقا يكاد لا يبصر ما امامه ، وقد تجسمت في خياله صورة عبود وهو يشم عجله ويقبله ويرسل من فمه تلك الضراعة الباكية على مسمع الشيخ : «الله يخرب بيتك» .. فيخيل اليه أن السماء كانت مفتحة الابواب فلم تلق تلك الابتهالة حاجزا بينها وبين الله ! ..

وظل كذلك طوال المرحلة صامتا لا ينبس ، حائر الفكر يكاد لا يعرف مكانه من الارض ، كأنه جندي من فلول كتيبة مهزومة .. لولا نظرات عابرات يرسلها بين

اللحظة واللحظة الى مؤخرة ذلك العجل الذهبي الذي تقلصت فيه كل أمانيه ، فأصبح عزاءه الوحيد في تلــك الكارثــة المفجعــة .

وابى القدر الا أن يتمم فصول المأساة ، فاذا سيارة طائشه توشك أن تجتاح الشيخ من خلفه فيزيغ عنها في غير وعي ، فتكتفي منه بقطعة مــن ثوبه الأبيض السابغ تخطفه بطرف مقدمها ، ثم لا يكاد يثوب من فزعته حتى يرى النهاية الموجعة : لقد نفقت الدابة التــي تحمل القربتين ، وانتشر الزيت على ظهر الطريق ممتزجا بدم العجل الذهبي ، الذي لم تذر منه السيارة الجانية سوى اشلاء مبعثرة ! .



أبوطاقة

لم يكد «ابراهيم» يطل على داخل الغرفة حتى وقف مكانه مشدوها ، وقد علقت عيناه بدرج النضد العتيق المسند الى الجدار تحت مرآته الصفراء ذات الاطار المذهب من الجبس ، والملطخ بتلك النقط السود ، التي تراكمت عليه من آثار هذا الذباب السابح اسرابا في فضاء الغرفة .. وبعد احجام قليل اشبه بالذهول تحركت قدما الرجل نحو هذا الدرج . وفي حركة عصبية امتدت يداه الى جوفه تقلبان اوراقه المبعثرة ، وقد أمسك نفسه يضغطه في صدره كأنما يخشى ان يشغل بحركته عمل اذنيه ، وكان كلما اوغل في نبش محتوياته تضاعف قلقه وغلا اضطرابه فلم يلبث ان استله من موضعه وكبه على وجهه ينفضه نفضا، لا يبالي اصطدام تلك القناني الثلاث بصفحة الارض العارية المصنوعة من الاسمنت ، ولا يعبأ بانكسار احداها واختلاط ما في داخلها من مسحوق الكحل الاسود مع محتويات الاخرى من ذلك السائل الرقيق الاصفر ذي النفح

البنفسجي •• ثم جعل يأخذ تلك الاشياء المختلفة واحداً فواحدا يجمعها على حدة ، بعد أن يشبعها نفضا وتنقيبا ، حتى لم يذر امامه منها الا ما لا يمكن ازاحته من موضعه مما تلوثت به الارض ، والاتلك الازرار القليلةالتي انتشرت بدورها في انحاء الغرفة •

ولم يعد يطيق الصمت ، فاطلق شفتيه بنفخة طويلة عريضة ، ثم نادى بأعلى صوته ، وفي نبرة جوفاء حادة : «• أمون ! •• تعالي ! »

واقبلت هـذه مسرعـة الخطى كأنما احست فـي جفاف ذلك الصوت شيئا غريبا يحفزها على السرعـة • وما كاد ابراهيم يلمح خيالها على عتبة الباب الصغير حتـى تلقاها بسؤاله المخيف ، وهو ما يزال مطرق النظر في ما بين يديه : أين النقود ؟ ! •

النقود ؟ !! •• ماذا ؟ •• لقد تركتها في مكانهاهنامنذ ساعة •• ساعة فحسب ، حين فتحت الدرج فتناولت منـه قطعة الصابون» •

ــ اذن فأنت تركته مفتوحا على ما رأيته ؟ »

ــ مفتوحا ! ! لا •• لقد •• المفتاح !! •• انه ، هنا! في القفل •• أوه !! اذن •• لقد نسيته ! •• ولكن ، ،

الويــل •• الويل لي ! ! » •

وجعلت المرأة تلدم وجهها وتلطم فخذيها ، وهي ترسل مثل هذيان المحموم ، فتنتشر فقاقيع الصابون على خديها المورّسين، ويهب النسيم الرهو متراوحا بين الباب والنافذة المقابلة فيضرب ثوبها على جسدها محدثا مثل صوت الصفع، ثم تكب بدورها على الدرج الفارغ تقلبه في غير وعــي ، وتمضي الى اشيائه المبعثرة بجانب زوجهــا تمحصها مــن جديــد ••

ونظــر اليها ابراهيم بعينين جامدتين ، وقــد أقعى بمؤخرته على الارض ، واحاط بكفيه المتشابكتين ركبتيه، وكأن خاطرا مفاجئا لمع في قلبه فقال : وهو يتحفز للنهوض: محمد وسليم •• اين هما •• إيتيني بهما حالا ! »

ــ لقد ارسلتهما يلعبان في الزقاق منذ الصباح ولم يعودا بعد ! »

فسُقط في يد الرجل ، وعــاد الى شأنه الاول مــن الاضطراب : اذن لا يمكن أن يكونا •• »

ــ كلا •• كلا •• لا يمكن ، ابدا ••»

ــ واين ذهبت مئتا الليرات اذن ؟ ! أين •• أين !!

ألم نعدّها مساء امس لآخر مرة ؟!٠٠ »

ومضى يذرع الغرفة ذهابا وجيئة دون ما شعور ، ثم بدأ يعود اليه وعيه وئيدا لينشر في خياله المشوش احداث الشهر، فيتابع مصروفاته وما اداه الى الناس درهما فدرهما:

اربعمئة ليرة هي جماع ما استطاع توفيره من ارزاقه في القرية منذ اربع سنين ، قدم منها مئة وخمسين الى الافندي مقابل وساطته للحصول على هذه الوظيفة الصغيرة في كتابة المحكمة ، ثم وزع الخمسين بين حاجات المنزل واجرته ، فالباقي نصف الاربعمئة دون ما شبهة ٠٠ الم يتعاورها بالحسبان كل مساء ، حتى غدا لا تطيق اجفانه النوم قبل أن يراودها بلمحة تطمئنه على وجودها ! ٠٠ ثم ما له وللشك ٠٠ انه مازال حتى قبل هذه اللحظة يقيم عليها آماله السعيدة في بناء منزل بين هذه المساكن التي ينشئها ابناء قومه من القرويين في ظاهر المدينة، حتى ليختط لنفسه تصميما حكيما يمكنه من توفير نصف مرتبه الذي لم يقبض بعد فلسا واحدا من ليراته الثلاثين ، فهو لم يبق بينه وبين تحقيق هذه الاماني اللذيذة سوى سنتين اثنتين، تمدانه بالقوة الكافية لجعله واحدا من سكان المدن السعداء ، دون أن يحتاج الى التصرف بشيء من ممتلكاته القليلة في القرية ٠٠ أفتضمحل هذه الاحلام جميعا في

لحظة خاطفة ! ! انه لا يطيق ان يتصور ذلك ! ..

والتفت الى زوجه وقد تقلصت عضلات وجهه المجدور من شدة التأثر ، وبرزت عيناه الواسعتان في حمرة غشت سوادهما الحالك ، وجعل انفه يضطرب في حركة مفزعة :

ـ يجب أن تتذكري جيدا .. من جاءكم اليوم ! .. من دخل هذه الغرفـة ؟ ! » .

وكأن المرأة قد ايقظها هذا السؤال من سبات عميق ، فما إن تلقفته أذناها حتى هبت قائمة :

ـ منذ مساء امس حتى الساعة .. لم يطأ هذه العتبة سوى الشيخ سلمان ! ..

لقد جاء بهذا الوعاء من اللبن ، قبل ساعتين ، واذكر انني قدمت له هذه الصفحة من «المجدرة» وتركته وحده هنا ولكن .. هل يجوز ! ..»

ولم يستطع ابراهيم إصغاء الى تساؤل امرأته ، فمرق كالسهم من باب الغرفة ، وهو يقول : انه هو .. انه هو .. يجب أن ادركه قبل أن يغادر البلد .. »

وصفق الباب الخارجي وراءه بقوة ثـم توارى فـي سبيلـه ..

* * *

وقف ابراهيم يستجم في ظل شجرة وارفة من الأزدرخت عند مفترق الشوارع المتقاطعة على مقربة من دار الحكم ، وقد حمل باحدى يديه طربوشه الخمري الكبير ، وجعل يمسح بالاخرى صبيب العرق الغامر المستفيض عن رأسه وجبينه ، فيسيل عن اسفل ذقنه المفرطحة خيطا أبيض طويلا .. وانسربت عيناه تجوب الانحاء لا تستقران على حال ولا تهدآن على منظر ..

لقد صرف ساعة طويلة من تلك الظهيرة المستحرة ينقب على غريمه في كل منطقة من شوارع البلد الصغير ، لم يدع منها مكانا الاغشيه ، ولا امرءاً يتوهم معرفته بالرجل الا وقف عليه يسأله عنه ، حتى مسح ارجاء طرطوس مسحا دون ان يعثر له بأثر . وقد كان في وسعه ان يكتفي بنشدانه في اماكن محدودة من مساكن القرويين وحوانيتهم ، او بعض هاتيك المحال الاخرى من المتاجر الصغيرة التي تتصل بغلال الفلاح من البيض والزبد والحبوب ، وبحاجاته القليلة من الملح والدقيق والصابون والقماش الياباني الرخيص ، او في بعض دوائر السراي ، وهي الموئل الوحيد الذي يستغرق معظم اوقات هؤلاء القرويين لدى وجودهم في المدينة ، فليست المقاهي ولا امثال المقاهي مما يتصل بحياة الفلاح ، فكيف بهذا القروي الفقير الذي توشك الا ترى وجهه المدينة لولا تلك الدعوى التي

يقاضيه بها احد المرابين في بضع مئات من القروش اضطره الجدب الى اقتراضها منه ، فاذا هي تلتهم كل ما يملـك من بقرات ودجاج دون ان ينتهي الى سد الفائدةوحدها•• ولكن ابراهيم تجاهل كل ما يعلمه من ذلك ، فلم يتردد أن يجوب مقاهي البلدة جميعا ، ولم يدع خانا واحدا الا مر به يتحراه اكثر من مرة •• وها هي ذي جهوده اخيـرا تذهب كلها دون جدو ى! •• فاين تراه غطس فـي هـذا الوقت الذي لم يزد امتداده بعد على الساعات الثلاث ! •• أيكون قد أخذ طريقه الى قريته ماشيا ! ! •• ما دام لـم يقف له على اثر ما في اي المحطات الثلاث التي تقف عندها السيارات ! •

وكان يجد في هذا الاخفاق قوة تضاعف من يقينه بأن غريمه ليس سوى هذا الشيخ ، لا مراء في ذلك ! • ولكن أية فائدة لهذا كله اذا لم يدركه قبل أن يتسع لـه الوقت للتفريط بشيء من المبلغ المسلوب ، وهو لن يصل الى ذلك الا اذا استطاع الوقوع عليه قبل أن يبلغ مأمنه من القرية•• وكان يخشى اذا هو قصد اليها لفوره ألا يجده قد وصلها، أو أن يكون لا يزال كامنا في مخبأ من البلد ، فيفسح له بذلك مجال الهروب والنجاة بغنيمته الى حيث لا مطمع بها بعـد ! •

وبغتة اخذ عينيه جماعة من الناس قد تكبكبوا على رجل في زاوية من السور القريب ينظر في شيء امامه، وقد تجمع على نفسه في جلسة قروية على بسيط الارض ، وعليه عباءة قصيرة بالية من الشعر المصبغ ، فوق سراويل قديمة من الخام قد حجب لونه الاول بلطخ صفراء من أثر التراب •• انه (ابو طاسه) لا ريب في ذلك ! •• لقد تذكر انه مر به في هذا المكان نفسه ، ساعة رجوعه الى البيت في تلك اللحظة المشئومه ، وانه وقف عليه هنيهة مع الواقفين يستمعون الى اعاجيبه في حل الاسرار والكشف عن الغيوب ••• ولقد تعجب من نفسه ان ينسى حتى الآن هذا الرجل الذي طبق صيته انحاء القرى ، في هذا الجبل الممتد بين انطاكية وطرابلس ، حتى بات لايذكر اسمه الا محاطا بهالة من التقديس ، الذي يدخره أولئك القوم للجلة من الشيوخ الذين فتح الله عليهم ببركة الولاية ! • ولطالما رجعوا اليه عند المحن التي تتكسر من دونها علوم حياسيبهم من المشايخ •• فلا عليه اذن الا أن يفر اليه بما دهمه : ان في مكنة «طاسه» المتواضع وحده ان يضع الآن يده على السارق والمسروق جميعا •

ولم تمض سوى لمحة فاذا هو بين يديه برهف سمعه الى كل نبسة يتحرك بها لسانه الهادىء الرزين ••

وضم الشيخ القصير لحيته الصفراء بين أصابعه ، ثم

أرسل عينيه الصغيرتين في جوف الطاس النحاسي الفارغ الذي بين يديه ، ولبث هنيهة في اطراقته مطبق الشفتين لا يأتي حركة ، كأنه في غيبوبة من خيال نفسه لا يشعر بما يحدق به من ابصار المشاهدين من حوله ، ولا يكاد يبالي قلق هذا الرجل المتجمع امامه على وشك الاقعاء ، يرمق صمته العميق بمقلتين يغمرهما الجزع . وبعد لحظة مد يدة من السكوت المليل رفع الشيخ رأسه الحليق في بطء ، وعيناه لا تزالان على طاسه ، ثم جعل يحرك شفتيه بتمتمات بدأت خافتة مبهمة ثم لم تلبث أن أخذت في الوضوح ، حتى فهم منها ابراهيم بجلاء هذه الكلمات :

« انت تبحث عن مسروق » .

ولم يتمالك هذا أن يجيبه في لهفة : نعم .. نعم ..!، ثم فطن الى انه لا ينبغي ان يتكلم فامسك لسانه على هذا الحد .

واستأنف الشيخ القزم تمتمته الهادئة : رزمة صغيرة من .. أوراق مختلفة .. ليرات ورق . انها هنا ، في داخل ثوبه .. رجل متوسط السن .. اسمر .. انفه طويل مجدور .. في صدغه الايمن لطخة حمراء من اثر دملة قديمة .. لحيته قصيرة شمطاء ..»

ولم يطق ابراهيم بعد الاستمرار على صمته فصرخ :

انه هو •• هو نفسه •• اين ذهب ؟ ! »

ولم يلح على الشيخ انه يستمع الى كلمات ابراهيم فمضى في حديثه ايضا •• : «انه يتجه صوب الجنوب في مركبة سريعة •• سريعة جدا ••»

ولم يعد ابراهيم بحاجة الى شيء آخر ، وقد فهم كل ما يريد أن يفهمه •• إن سلمان في طريقه الى القرية يحمل الدراهم فوق صدره ، وقد تكون السيارة أشرفت به على المفرق الآن •• فالى السيارة •• الى السيارة ! ••

وقفز من مكانه في خفة الظبي يخطف المسافة القصيرة الى المحطة خطفا ، في خطوات ضاعف من اتساعها الطبيعي بسبب ارتفاع ساقيه ، قوة جديدة من امل مهدد كان له في صدره مثل عمل الوقود في مرجل السيارة •

❋ ❋ ❋

مضى ابراهيم يطأ في عزيمة فتية تلك الصخور المركومة في مجاز المفرق المؤدي الى القرية ، لا يبالي ما يعتوره من ترجرج عنيف بكرهه عليه انزلاق قدميه المتتابع فوق الحجارة المتقلقلة ، ولا يتحامى تلك الهبوات الكثيفة من الغبار تسفيها في وجهه وانفه وعينيه أظلاف البقرات الخمس التي تسد عليه منفرج الممر ، فتمتزج بفيض العرق النابع من انحاء وجهه العريض ، فاذا هناك غشاء يكاد يلصق اهدابه الوطف

بعضها ببعض ، فيرفـع يده بيـن الفينة والفينة يمسحها مسحا رفيقـا •

وما هي الا دقائـق معـدوده حتى كان بازاء المصطبة البيضاء ينظر بكلتا عينيه الى الرجل فيوشك ان ينقض عليه بكل ما يملك من قوة •••

وكان صاحبنا هذا متمددا بسراويلـه الاغبر وقميصه المشقوق الى بطنه على حافة المصطبة بهدوء مغرق ، كأنه لم يبرح مكانه ذاك منذ بعيـد :

ــ اي شيخ سليمان ! أنت هنا ؟ !

فلم يبد على سلمان أي اثر من الارتباك ، حين رفـع نظره في حركة ملؤها الكسل الى وجه مخاطبه ، فكأنماكان ينظر الى شيء متوقع منتظر ، ثم ما لبث أن نهض لاستقبال ضيفه ببشاشة القروي ••

ــ معلمي الشيخ ابراهيم ؟ ! •• يامية اهلاوسهلا ، الله يعطيك العافيـه ••»

وتقدم من ضيفهثم مد يمناه ولمس براحته المفتوحـة أطراف انامله ، واعادها الى شفتيه يقبل منها الموضع الذي مسه ، ثم التفت ناحية البيت وهو يصيح بصوته الأجش :

ـ خدّوج •• هات اللباد » ••

وكان ابراهيم يرى الى كل هذا في دهشة واستغراب فيوشك ان يساوره الريب في الامر الذي قدم من اجله ، على انه لا يلبث أن يتذكر كلمات ابو طاسه واخبار زوجته عن الرجل • ثم اختفاءه السريع ، حتى تضمحل هذه الغمامة في ارجاء نفسه ، ويرجع اليه اليقين كأشد ما يكون قوة ••

وكانت عيناه لا تفارق صدر محدثه يود لو يخترق بهما ذلك الثوب الفرد الذي يستر جانبيه ، بل يود لو يطلق ليديه الحرية فتنزعانه من موضعه على ذلك الجسم •• ولكن اين هذه الخبيئة ! ؟ •• انه لا يلمح لها اثرا البتة هناك ، وها هو ذا الهواء يمر بذلك القميص فينفخه ثم ينفضه فلا يبصر من ورائه الا تلك البقعة المعشوشبة من الشعر الكثيف الباهت ، يحجب بشرته النحاسية بالوانه المختلطة من السواد والبيـــاض ! •

ـ لا حاجة الى اللباد يا شيخ سلمان •• ان السيارة تنتظرني وسأعود حالا الى طرطوس •

ـ السيارة ! دعها تمضي •• أتذهب قبل الغداء •• لا والله ! »

ولم ينتظر جــواب ابراهيم بل أهوى الى جانبــه يريد أن يمسك الفروج الاحمر الذي أقبل ينقر في جــدار

المصطبة • ولكن ابراهيم اكد له عزمه ، ووضع يده على كتفه يمنعه من ذلك، ثم قال له بعد شيء من التردد : اريد أن أخلو بـــك لحظة» ••

فلم يمانع الرجل بل مضى معه حتى انتهيا الى شجرةتبن تظلل مصطبة أخرى وراء المنزل ••

ــ اسمع يا شيخ سلمان •• انا اعلم ما عليه امرك من الضيق ، وكان في عزمي أن اقرضك ما يكفي لتسديـــد ديونك دون ما فائدة ، ولكنك استعجلت ، وانت معذور ، وقد اسرعت اليك لأؤكد لك انني غير مستاء، وثق بان احدا لم يطلع على مـــا فعلت غيري وغير امرأة اخيك» ••

وكان سلمان يتلقى كلمات صاحبه في مظاهـــر شتى من الشكر والاستفهام ، فلما انتهى هـــذا الى آخر قوله اجابه : انا والله اعرف عطفك من زمان •• ولكني لم افهم قصـــدك» ••

ــ ما لنا وللتجاهل ياشيخ •• أتريـــد أن أقول لك بصراحة انني أقصد الليرات المئتين ؟ !

ــ ليرات ! ! مئتان ! ! •• لا وحق الخضر لم افقه بعد ماذا تريـــد ! »

ـ أوه ! •• يظهر انك ما زلت في شك من حديثي ! أتريد أن اقسم لك بسيدنا علي وبهذه الشمس ، وبكل قبة في هذه الارض انني صادق في ما اعدك ؟ ! ما كنت لاعتقد أن الامر صائر بيننا الى مثل هذا الريب والتكتم •• لقد كنت احسب أن بيتك وبيتي واحد ، وان لا فرق بيننا الا المحرم ! »

ـ اي والله هذا صحيح •• ولكن المئتان هذه ؟ ! »

ـ هذه التي أخذتها بيدك من الدرج صباح اليوم •• أهكذا تود أن اتكلم معك ؟ !

ـ اخذتها انا ! ! •• ويلي أخذتهاانامنالدرج ••؟»

وكان يلفظ هذه الكلمات المتقطعة وهو يدق صدره بيديه حتى اوشك أن يعاود ابراهيم الريب مرة اخرى لولا خيال ابو طاسة ولولا خبر امرأته ! •

والتفت الى صاحبه من جديد : لقد راعيت معكحرمة الصداقة وقرابة الدين فلم الجأ الى الحكومة ، وقد كان بوسعي كما تعلم ، أن أعهد بامرك الى دركيين يودعانك السجن في حالة لا ارضاها لك ، فأجعلك انت تسعى لاسترضائي بقبولها بدل أن أسعى انا اليك •• بيد أنك لم تقدر لي هذه العاطفة ، وعلى كل لا يزال لدي فسحة من

الوقت اذا أبيت الا ذلك•• ولكن يجب انتذكر : ان هناك فضيحة •• فضيحة •• فضلا عن أننـــا سنخسر بعضنا يـــا سلمـــان» ••

ــ يا سيدي سلامة عقلك •• والله انت غلطان •• سل عنى أهل القرية •• سل ••»

ــ لا اريد أن اسأل احدا بعد •• فقد سألت نفسي وسألت امرأتي، وسألت ابو طاسة •• ابو طاسه نفسه، واذا شئت حدثتك كيف اخذتها ، واين وضعتها••بل انني لاكاد انبئك اين جعلتها•• لا فائدة من النكران•• لنبق صديقين•»

ولكن الرجل لم يكن ليقابل كل هذه الكلمات الحاسمة الا باصطفاق كفيه ، والا بقوله هذا الذي ارسله في كثير من المرارة واللوعة : يا ويلي !•• انا اسرق الشيخ ابراهيم!! شيخنا وابن شيخنا ؟ !

واطل فى هـــذه اللحظة عليهما وجه المختار الشيخ حسين من خلال اشجار الكرمـــة القريبة ، وكان لابراهيم دالة على الرجل ، وبينهما صداقة وثيقة متوارثة عن الآباء، فلم يتردد أن دعا بـــه الى مجلسهما ونهض لاستقباله ، ثم وضع كل منهما على يد الآخر قبلة خفيفة ، وانتقل الثلاثـــة معا الى مكان جديد شرق الشجرة، حيث بدأ يتكاثف الظل،

ولم يحجم ابراهيم كذلك عن ان ينفض بين يــدي الشيخ حسين دخلة نفسه جميعا على مسمع من غريمه ..

واستمع الشيخ بدوره الى انكار سلمان من جديــد والى دفاعه الحائر الصارم ، فبدا له أن يأخذ به الى خلوة لا يحضرها ثالث ...

ولم يطل المقام بابراهيم حتى بصر بهماعائدين ، ولكنه لم يتبين في وجهيهما ما ينبئه بجديد ...

قال الشيخ حسين بلهجته الرزينة وهو مطرق في ما بين يديه : خير ما اراه أن تتوجها من ساعتكما الى « ابو طاقــة» . ولعل الشيخ سلمان يراجع نفسه اثناء الطريق.. ان هذا المقدس كفيل باظهار الحقيقة مهما أبعدت في التخفي، وما أحسب كاذبا يجرؤ على الحلف به ، وهو يعلم ان طاقته العجيبة قد طالما فضحت مئات المجرمين ، وشرفت عشرات الابرياء حتى اليوم» .

وكأن ثقلا كبيرا فادحا قد ازاحتة هذه الكلمة عن صدر ابراهيم ، فهو يعرف عن ابو طاقة هذا الكثير من الكرامات، ويوقن بانه ليس احق من طاقته تلك بكشف الحجب عن الحقيقة الضائعة ، وجعل يعجب في ذات نفسه كيف صرفه النسيان عن ذكر هذه الوسيلة المثلى حتى الساعة، فما لبث أن

قفز واقفا ، وسأل الشيخ سلمان في نبرة حازمة : أو أنت مستعد للحلف على ابو طاقة ؟ •

ــ نعــم ! !

ــ فهلم بنــا ! ••

وان هي الا لحظة يسيرة حتى كانت السيارة الصغيرة تطوي بهما الارض شرقا في طريقها الى ذلك الحرم المنشود!

* * *

لم يكن ازيز السيارة المتهدمة ، وهي تتسلق بعجلاتها السائحة من الحركسر الحجارة المسعورة بلهب الشمس ، لتشغل ابراهيم عن تصوراته المتباينــة طوال ذلك الطريق المتلوي كالافعوان بين الغابــات والسفوح وفوق الآكام المتتابعة ، فقد ظل في غمرة طويلة عميقة مــن التأمل ينتقل بها بين نفسه ووجه رفيقه سلمان القابع الى جانبه ، يحاول ان يستشف من وراء صمته المستمر ، ومن خلال نظراته الذاهلة الى عصاه ، ما يختلج في صدره مــن عزيمة نحو هذه الغاية التي يسعيان اليها • وكــان كلما تجاوزت بهما السيارة مرحلة من تلك السبيل يحس امله يتضاعف بعدول الرجل عن الخطة التي استعد لها ، وانه يوشك ان يميــل اليه في حياء ونــدم ليبثه رغبته في الاعتراف بالحقيقة ، مستغفرا عن زلته ، مناشدا اياه ان يعــود به دون الغاية

ليسلم اليه ضيعته •• فلا يفتأ يرهف اذنه لهذا الخيال الماتع ويخالسه النظر ، والرجل ماض في اطراقته العجيبة لا يرفع نظره عن عصاه التي يقبض عليها بكلتا يديه ، ولا ينبس ببنت شفة ، حتى كاد يسقط في يده وينفض امله من البقية الباقية من رجائه الجميل •• على انه لا يلبث ان يرجع به الفكر الى « ابو طاقة » حتى يعاوده الرجاء كأشد ما يكون قوة •

ان ابو طاقة هذا لا يزال حلال المشاكل مهما استغلقت وعيَّت بادراكها افهام الناس وبراعة القضاء ، وان المجرم الذي يعرَّض للاقدام على الحلف به والنفاذ من طاقته ليؤثر الف مرة الاقرار بكل شيء بالغة ما بلغت تبعته على ان يزج بنفسه في هذه التجربة القاضية عليه •• وكأي من رجل قد تحصن باضعاف هذا الانكار الذي يلجأ اليه غريمه ، واعانته الاسباب المسعفة حتى تظفره بتبرئة المحاكم ، ثم لا يكاد يشرف على هذه التجربة حتى يتضعضع جلده وينهار كل ما شادته له تلك الوسائط من معاقل لا يُنفذ الى ما وراءها ، فاذا هو مقر بجريمته ، شاهدا على نفسه بما لم يطلع عليه احد سواها ! فكيف يتيسر لصاحبه ان يشذ عن هذه العقيدة التي تستحوذ على قلوب السواد الاكبر من سكان هذه الجبال !!• ألم يُذكّره بمختلف القصص عن كرامات هذا المقدس

العظيم !... ألم يوقظ في اعماقه كل خشية من هذه العاقبة التي يتعرض لها !! وهو سلمان نفسه اليس واحدا من اولئك الذين يغمر شعورَهم هيبةُ المقدسين من اصحاب هذه القباب !... أفينسلخ من ايمانه ذاك في سبيل الاحتفاظ بمئتي ليرة ؟! ان هذا لبدع من المنكر لم يعرفه احد بعدُ في هذا الجبل الذي لا يزال متشبثا بمواريثه هذه رغم كرور الأيام والأحداث !!

وما ان اطلت سيارتهما على غابة المقام حتى نفض ابراهيم رأسه كمن استفاق من حلم ، وارسل عينيه في خشوع خلال تلك المظال السامقة من خمائل البلوط ، المزدحمة حول القبة البيضاء ، تحف بها في روعة مثيرة ، وتفيض على ارجائها الرحيبة صورا من مهابة القدم الذي ترمز اليه .

وترجل كلاهما على مقربة من فناء الحرم ، وهما يتمتمان بفاتحه الكتاب ، ولما أوفيا على مدخله انحاز ابراهيم الى اليمين قليلا ، ومد يده الى الطاس النحاسي المربوط الى عروة الخابية في فرغة الجدار ، فبلّ غليله بجرعة طويلة من ذلك الماء المتبرد في تلك النسائم الناعمة ، وكان السادن قد أقبل على صوت المزمار يسرع نحوهما بخطوات قوية ، فما ان بصر بضيفيه ينتظرانه حيال المدخل الصغير حتى اقبل عليهما ببشاشته المألوفة ، يرحب بهما

في عباراتـه القروية الساذجـة • وبدأ بابراهيم ذي البزة الفرنجية فمد يده لمصافحته ، فلمس هذا اطرافها بشفتيه ، ثم اتجه نحو الرجل الآخر واشار اليه بالتحية داعيـا له بدوام العافية ، وبعد تساؤل متقابل عن الصحة والعائلة ، وبعد دعوات متبادلـة للصحة والعائلة معا ، اقبل الشيخ الخادم يسألهما في تلطف ووقـار عما اذا كانا يفضـلان التشرف بالزيارة فورا ، ام يعمدان الى الاستراحة قليلا في نزل المقام !•• فأجابـه ابراهيم : بل الزيارة اولا •• اننا سنعود قبل المساء • فاستدار الشيخ يضع احـد مفاتيحه الخمسة في ثقب القفل ، وفتح البـاب ، وانحنى ابراهيم وتابعه رفيقه يجوزان العتبة غير المرتفعة وراء الشيخ الذي كفاه قصر جسمه مئونـة تلك الانحناءة ، ولما صاروا الى ردهة المزار وقف ابراهيم يخـاطبه في تواضع : نحـن يا حضرة الشيخ آتيان لليمين على ضائع • فلم يفت هذا العلم بان سلمان هو المسوق الى الحلف ، وكـان قد عاد الى صمته الاول ، وجعل تبدو عليه مطـالع الحيرة ، فلم يلحظ حديث رفيقه ، ولم ينتبه لوقفتهما هنـاك ، فاتجه اليه الشيخ يرمقه بالحاظ عميقة نافـذة ، ويدير في وجهه وثيابه عينين حادتين يظلهما رف كثيف من الشعر الاشمط المبعثر ••• ولبث كذلـك هنيهـة يعبث بلحيته الكثـة المصفارة باحدى يديه ، ويحرك بالثانية حزمة المفاتيح •• وفجأة التفت الى ابراهيم فاشار اليه ان يلحـق به ، وفي

زاوية من اقصى الفناء وقف يستفسره الامر ، فيحدثه هذا بكل شيء ، ثم قال في تململ وجزع : فلعلك ايها الشيخ مستطيع اقناعه بالعدول عن هذه التجربة .. انني اذن سأعرف كيف أضعف مكافأتك » .

فلمعت عينا الشيخ ، وقال : « انتظرني أخلُ به قليلا » .

ومضى حتى أخذ بيد سلمان ثم ما لبث ان اجتاز به ردهة الفناء ...

وعبثا ذهبت محاولات ابراهيم لتسقط الحديث بين الرجلين ، فقد كانت خلوتهما حيث لا يصل الصوت الى سمعه فضلا عن الهمس ، ولكنه كان يفهم من اللفظ انهما وراء القبة في ظل تلك الشجرة المنفردة ، فلما عاد الشيخ اليه ادرك من تغير سحنته معالم الاخفاق ، وتبين من حركة سلمان الذي اقبل في اثره ظواهر الاصرار اليائس ، فلم يبق الا ان يضع امله جميعا بين يدي هذا الضريح ، فتبع الخادم الى حيث اتجه ناحية الباب المقفل وهو يقول في لهجة ملؤها القنوط : اذن سيحلف ولا بد !

فأجابه الشيخ دون ان يلتفت صوبه : نعم سيحلف.. والمؤسف ان المسكين لا يعرف شيئاً عن اسرار هذه القبة

التي طالما عصرت الكاذبين حتى كادت ان تحطم رؤوسهم وأضلاعهم ، ومع ذلك لا يريـد ان يصدق كل ما حدثته به من براهينها ... فهو يحب ان يقـوم بهـذه التجربة الخطيرة بنفسه .. وسنرى .

وكان يلقي بهـذه الكلمات في نبرة المؤمن المتحدي بايمانه ، وهو يدير مفتاحه في قفل الباب الخشبي القصير .

وخلع الرجال الثلاثة نعالهم ثم تقدمهم الشيخ بعد ان قبل نزيلاه جانبي الباب ، ولما اطلـوا على صندوق القبر المجلل بالستائر الخضر رفع ابراهيم يديه وفعل سلمان مثله ، وجعلا يقرآن الفاتحة في صوت خفيض وفي خشوع عميق ، ثم ضم يـده الى جيبه فاستخرج منهـا الورقة المنتفخة بحشية البخـور ، الذي قـد استحضره في طريقه مـن الحانوت القائم على الطريـق ، وافرغ ما فيهـا في تلك السلال الأربع الصغيرة المركوزة علـى زوايا الصندوق الخشبي ...

والتفت الشيخ بعد ان وضع النار على الهدية يخاطب سلمان : ضع يسناك على هذا المقام ... قل : يا ابو طاقة .. يا ابو طاقة .. اذا كنت انا سارق مال هذا الرجل فأطبق على طاقتك وافضحني .. فجعل سلمان يعمل ما امره به ، ويردد كلماته تلـك في رعشة وغصة كادت تمنعـه مـن

الجهر •• ثم نزع يده وتبع الشيخ الـى حيث اشار من الجدار ••

ووقف سلمان هناك ينظر الى تلك النافذة الرهيبة على مقربة يديه ، وقد اخترقت الجدار بشكل صنوبري، يبتديء متسعا ثم يضيق ويضيق • ويضاعف من منظر ضيقه هذا تغلغلها في طبقات الجدار المزدوج فتبدو لعيني سلمـان كقبر أعد للانطباق عليه ! •

ولم يلبث أن مد ذراعيه الراجفتين الى باطن الثقب ، ثم جعل يدفـع فيه جسمه عضوا فعضوا ، ومضى يزحف متمددا يستعين بيديه تارة وبرجليه تارة أخرى •••

والقى ابراهيم ماتيسر من النقود الفضية في علبـة خاصة لذلك في جدار الصندوق ، ثم خرج في اثر الشيخ الخادم الى حيث يرقبان معا نتيجة المعركة ، وقد أعجلـه القلق عن تناول حذائه الذي اودعه عند المدخل ، فمشى يطأ الحصى والاوراق اليابسة بجوربيه حتى انتهى الـى مقابل النافـذة •

وبعد جهد أطل رأس سلمان من تلك الفوهه ، وقـد غطه العرق وانضغطت انفاسه ، فارتدى وجهه صبغة كئيبة، ثم بدأ يتململ على مرفقيه وهو يرسل من انفه المنتفخ مثل أزيز المرجل الفائر ، ويسمع لثوبه الخشن الجاف حسيس

كصوت المكشطه على الجلد اليابس ..

وبعد لأي انطلقت ذراعاه ، ثم جعلت شفتاه تنفرجان عن اسنانه المطبقة ، وانفاسه المكظومة تتصل من جديد بالفضـــاء ..

وكان ابراهيم يرسل على هذا المشهد نظرات جازعة يصحبها بحركات عصبية غير واعية ، فما إن ابصر صدر غريمه يتجاوز ذلك الثقب حتى اطبق عينيه يشيع بقيــة احلامه في حرقة موجعة ، وفي تنهدة طويلة عميقة .!



المساء المسحور

لم تكد الساعة تدق العاشرة حتى غرفت الحجرة في سكون النوم . فالاطفال مبعثرون هنا وهناك على الارض وفوق البسط ، والنساء معقولات الالسن تترددرؤوسهن بين الصعود والهبوط ، حتى مصباح النفط الصغير قـد أخذ يشحب مكانـه على المنضدة الصغيرة فينشر ضوءه الاصفر الباهت على الوجوه والجدران والمساند ، فيضاعف من هدأة الليل ، ويزيد في قوة السبات بما يبعثه فـي الانوف من دخانه المتصاعد .

وطرق الباب الخارجي فجأة ، وكأن بينه وبين «أم الحاج» صلة من الكهرباء لم تلبث ان مستها حتى نفضت رأسها . وكانت هذه الطرقة ساعتها الليلة التي تقيس عليها الوقت ، فحسبها أن تسمعها حتى تدرك ان ابنها «الحاج قاسم» قد انصرفت من فرنه، وان السهرة قد انتهت فعليها أن تغادر مع كنتها منزل الجيران الى البيت .

واحتضنت ام الحاج حفيدها الذي يجب الا تمس على رأيها - رجلاه الارض ، برغم سنه الثامنة ، ما دام الى جانب جدته ، ثم ايقظت كنتها وايقظت ربة الدار لتغلق وراءهما الباب ، وبعد لحظة كانت ام الحاج على باب مسكنها القريب تدس المفتاح في ثقب القفل ، وقد تقدمت ابنها وزوجه ، على عادتها ، لتهيء لهما موضع النوم ، ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى ارتفع صوتها بصرخة هائلة هلع لها قلب ابنها وزجه ، وتراكضا نحوها ..

وصاح الحاج : ما بك يا امي ! . ؟

- ما أدري أي شيء لسعني في كعبي الايسر .. احسبها حية .. ابتعد يا ابني .. ابتعد مع زوجك لئلا يصيبكما اذى ...

وكان اشد ما يروع ام الحاج في تلك اللحظة هذه الجفلة التي عرت حفيدها (شحاده) بصرختها المفاجئة ، فضمته اليها ضما رفيقا ترقيه وتسمى عليه وتمسح وجهه بكفها ، لا يشغلها عن ذلك بقاء الحية ملتفة حول ساقها تنفضها بكل ما اوتيت من قوة !

وتنبه الجيران لصراخ الحاج ، واسرع المارة من الشارع ، وجيء بالمصابيح ، وقضى على الحية الغادرة ..

❋ ❋ ❋

كانت اللسعة بالغـة ، فما إن أخذ السم سبيلـه في الدم حتى سرى الورم ينتشر في انحاء الجسم وحتى كانت العجوز قد ودعت نصف املها بالحياة بما يغالبها من الالم المتدافـع ..

وكان قد ازدحم في فناء الدار وفي الغرفة حشد من نساء الحي ورجـاله ، وجعل بعضهم يدلي بآرائه التـي يعلمها والتي سمع بها في علاج مثل هذه الحالات : هـذا يدعو لربط الساق بلحاء من شجر التوت سدا الطريـق السم ، وذاك ينادي بضرورة التشطيب لموضع الاصابة ، وذلك يؤكد فائدة كيه بالنار .. ولكن واحدا من هـذه الآراء لم ينجـح في تخفيف الالم أو الورم ، ولبثا علـى شأنهما من الاستفحال والتنافس .

وقال قائل : (لندع الطبيب .. فقد علمت أن فلانـا لسعته حية فعالجها بحقنة او اثنتين فرجـع كأن لم يصبه شـيء) .

ورد عليه الآخر : ومن يثق بذلك ! أو كان الطبيب نبيا ؟ ! ذرونا من الطب والاطباء ... ان كل ما لدى هؤلاء تجارب يتصيدون بها اموال المغفلين ! .. ويحكم .. أنسيتم حصاة اللاذقية ؟ !)

ومن ذا الذي لم يسمع بهذه الحصاة ، بل من ذا الذي

لم يستلىء رأسه باحاديث معجزاتها ! •• ألم تشف مئات الملدوغين ولا تزال تشفي حتى اصبحت حديث الناس ، وكأنها معجزة توارثها مالكوها منذ عهد النبوة ، فما تبرح قائمة تكره الجاحدين على الايمان بالخوارق •

لقد كان مجرد ذكر هـذه الحصاة كافيا لجمع هذه الآراء المتباينة، ولقدكان اشدالحضور ايقانا بها **الحاج وامه**، فما هي الا دقائق معدودات حتى كانت السيارة تنهب بهما الارض نهبا في طريق اللاذقية • ولكن عبثا ذهبت الجهود لانقاذ العجوز ، فقد فقدت الحصاة سرها القاهر بأزاءقوة اللسعة ، وعادت كغيرها من الاحجار والحصى، ولاول مرة اوشك ان يتزعزع ايمان الحاج وامـه بقدرة الخوارق ، عندما رأيا باعينهما عجز هذه الآية عن تحقيق املهما ، رغم كل ما افرغ في جوف الحاجة وما نقعت به الحصاة نفسها من ارطال الحليب ! !

❋ ❋ ❋

ومضى الحاج سادرا في شوارع اللاذقية يفكر فـي مصيبته الكبرى ، اذا فقد هذه الام واصبح في غد فريدا غريبا قد سلب القلب الذي يحبه بغير مقابل ، والملاذ الذي **يكلؤه في نكبات الحياة ، والعضد الذي كان ، منذ ادرك**

الوجود حتى مساء الامس ، معتمده الوحيـد في نشدان الرزق ، ترعى اطفاله وتحفظ منزله وتعينه في تجشم أعباء الفرن ، لا يمنعها من اعداد عجينه بيديها ضعف الشيخوخه، ولا يحول دون قيامها علـى تصريف خبزه طوال النهار وبعض الليل ذلك المئزر الابيض الحاجز بينها وبين الزبائن. فيتقلص بنظره الوجود حتى لا يتبين سبيله ، ويتمثل لعينه المستقبل مظلما كقطع الليل ، فتضطرم نفسه بالغلاب الصاخب بين الرجاء واليأس ، ويتلهف لانقاذها ولو بحياته ..

ووقف الحاج قاسم على نسيب له لاذقي يبثه دخيلة نفسه ، ويستشيره في امره عله قد علم علاجا لم يجربه بعد فيكون به تدارك البقية من ذَماء الامل. وذهب هذا النسيب بدوره يستشير معارفه من الشيوخ والرقاة ، واذا هـو يعود مستبشر الوجه قد حمل اليه الرجاء الاكبـر والشفاء المنتظـر ..

ــ أي حاج .. هلم بامك الى القرية .. فان هناك شيخا عجيبا قد شده العقول بما يصنع من الغرائب .. ان علاج امك لن تجده عند غيره .. أسرع .. أسرع .

ــ ولكنها لن تطيق الانتقال بعد ..

ــ لا بأس .. فقد علمت أن الشيخ يستطيع معالجة

الملسوع بوساطة غيره •• فما عليك اذن الا أن تشرب الماء الذي يحضره لك فتعود وقد انتهى كل شيء» ••

وطارت نفس الحاج قاسم فرحا بهذه البشرى، وامتطى لتوه السيارة لا يبالي اجرتها الباهظة •

ووصل الحاج الى القرية يلهث من العناء بعد ساعات اربع اضطره خلل السيارة الى قطعها سيرا على قدميه تتقاذفه الشناخب والادوية والسفوح ، ويغسله العرق في ثيابه المتلظية من حرالهاجرة • بيد أنه لم يكد يهتدي الى منزل الشيخ القائم في الربوة المشرفة على القرية كالعلم الابيض حتى نسي كل ما عاناه من مشقة • ومشى اليه مخترقا مسارب الازقه يتحامى بعصاه هجمات الكلاب المقتحمة عليه ، وقد تبينت في مشيته وفي لبوسه هيئة الدخيل الحائر !

وكان من حظ الحاج ان زوار الشيخ ذلك اليوم لم يكونوا قد تجاوزوا العشرة بعد ، فلم يكن هناك ما يحول دون استقباله وتقديمه على سواه من هؤلاء الزبائن •• ولا سيما ان الذي جاء من اجله احق باهتمام الشيخ من قضايا الحب والتنجيم وما اليهما مما كابدوا في سبيله متاعب الرحله من مختلف المدن والدساكر !

وتكرم الشيخ على زائره بقليل من البشاشة فأذن له بتقبيل يده ، وادناه اليه يؤكد له سهولة المطلب، ويعدد له العجائب التي اعاد بها الحياة الى كثير من أشباه الموتى ، وبخاصة الملسوعين والملسوعات •

واخرج الشيخ من ثوبه الترابي كتابه الاصفر ، وأطرق يحدق في صفحاته ويؤلف بين مزقها ، يتبين السطور البالية ، ويتمتم بهمسات مشوشة التركيب تهتز لها لحيته التي خضبت بياضها صفرة الدخان، والممتدة كالغطاء الكثيف فوق ترقوته العارية ••

وبعد هنيهة ،كانت اطول على الحاج من موقف الحشر، رفع الشيخ رأسه في بطء رهيب ، وأخذ دواته النحاسية الطويلة فاستل منها قلمه القصبي الاحمر ، ثم أقبل يسطر به اشكالا هندسيه مضطربة الخطوط على رقعة عتيقة من الورق الخشن ، لم يلبث أن محاها في اناء من ماء خاص ثم امره باحتسائه ••

وتناول الحاج الاناء الفخاري في شوق غريب،وافرغ ما فيه دفعة واحدة في جوفه ، وقد ايقن انه لن يستقر في صدره حتى تنقله قوة غير منظورة من اسرار الشيخ الى احشاء والدته ! •

وجاءت السيارة ، وقد عولج خللها فنقد الشيخ خمس الليرات ، ثم أسرع اليها يود أن تطوى به الارض في مثل البرق الخاطف .

* * *

ونعم الحاج طوال الرحلة بطائفة من روائع المنى تطوف بروحه فتفعمها بهجة ، وتبعث في ارجائها خواطر الامل الضاحك ، فتشغله عن دوي السيارة ، ويستلذ رقصها المتتابع بين العقبة والعقبة ، ثم يستجمع مخيلته يريد أن يتصور السعادة التي ينطلق اليها ، ويتساءل في سره عن مبلغ الدهشة التي لا بد أثارها في نفس والدته ذلك الشفاء اللاسلكي الذي ابرق به الشيخ الى ساقها بوساطة تلك الجرعة المسحورة .. وراح يهيء وسائل اللقاء الهادىء حذار أن يطغي الفرح على قلب امه فيذهب ببعض راحتها..

ومضى يفكر في هذا السبب الذي قد تكون حسبته سر برئها المفاجىء : أتراها توهمته في الحصاة ، ام في سواها من هاتيك الوسائل المختلفة ! .. ولكنه على كل حال ظل موقنا بان احدا لن يهتدي الى حقيقة ذلك الا هو وصديقه الشيخ .. ثم تدرج في تصوراته الى الطريقة التي سيسرد بها ذلك السر الذي سوف يصبح بعد حين حديث

اصحابه ومعارفه ، فيحس من ذلك مثل نشوة المكتشف استطاع أن يهتدي الى شيء ينفع الناس،ويرد امل القانطين الى انفسهم البائسة .

وانتهت المرحلة برغم طولها المليل، ووقفت به السيارة لدى باب المنزل الذي اودعه والدته ، فاذا هو باصوات النساء تصاعد من فنائه فيجمد مكانه مشدوها ، بيد انه ما لبث ان اقتحم الباب وقد رجح لديه انه عويل الفرح بعثه في النفوس عمله العجيبة ! .

ـ أمي .. أمي ..

واخذ يكرر هذه الكلمة مناديا امه وهو يدق بيده الجدار الخشبي ..

واقبلت عليه النساء في الخمر البيض،تتعثر اصواتهن بالنشج ، ويكفكفن من دموعهن الفائضة . وخاطبته احداهن في مرارة : العوض بسلامتك .. لقد دعاها الله ولا مرد لامره ..

وقالت الاخرى : «سامحك الله يا حاج ! . لكم نزعت الى رؤيتك وهي تجود بنفسها ! . »

وقالت الثالثة : «لقد ذهب فلان يبحث عنك منذ

ساعتين ولما يعد .. فاين كنت !! أهكذا يهمل الولد أمه على فراش الموت ! ! ما أقسى قلوبكم ايها الرجال ! .»

وكان يتلقى هذه الكلمات في ذهول صاعق .. غير انه ما لبث أن استسلم الـى ضعفه يبكي ويندب مـع النسوة ...

* * *

وكرت الايـام .. وكادت الحوادث تذهب ببقابـا المصيبة من نفس الحاج .. غير أن هناك شيئا في اعماقـه ما زال يبعثه على التساؤل كلما تذكر ذلك اليوم الاسود :

«ماء ذلك الشيخ .. كيف فقد تأثيره المجرب ليت شعري ؟ ! .. اتراني شربته بعد فوات الاوان ! ! .»

ثم يذكر خلل السيارة الذي عاقه عن نجدة أمهفي الوقت المناسب ، فيعض شفته ، ويقذف صدره بهذه الزفرة الجائشة :

«آه من تلك السيارة ! ! » .

* * *

بعد الامتحان

لم تكن «جرجيت» دميمة بالقدر الذي تتصوره امها، ولم تكن شقيقتها «روزيت» جميلة الى الحد الذي يخيل الى امها ايضا .. ولكن الفرق بينهما نسبي فقد كانت «جرجيت» سمراء اللون ، غير أنها سمرة فيها الكثير من الجاذبية ، أشبه بالعتمة المهيبة التي تسبق غرة الشمس ، وكانت قسمات وجهها متناسقة : جبهة عريضة ، وفم متوسط الفتحة قاني الشفتين، وعينان بين الضيق والنجالة، غير انهما رائعتان بشهلتهما التي تشبه لون العسل، تظللهما اهداب مديدة سوداء ، وحاجبان كثيفان افترقا في اناقة، ثم انحنيا قليلا كأنهما قوسا الدائرة ، ثم أنف دقيق منمنم لا يشوبه سوى انحراف يسيرفي ارنبته يميل بها الى اليمين ميلا ظاهرا ..

اما سائر جسمها فمعتدل البنية ، وربما كان اقرب الى النحافة المرغوبة ، وقد بدأت طلائع الشباب تفرغ من

سحرها عليه فيطل اندفاعا في أعلى الصدر . وألقاولمعانا في صفحتي الوجه ، ونشاطا وفتنة في حيويــة الاعضاء جميعــا ..

وما كانت روزيت . أو روز . علــى تعبير امهــا . لتختلف عن شقيقتها من هذه النواحي الا في اللون . فهي بيضاء البشرة في حمرة ملتهبة . وليس في قسمات محياها ما يشذ عن المعروف في محيا اختها . سوى أن انفها كان خاليا م نذلك الانحراف .. حتى أن الناظر اليهما لا يشك انهما منحدرتان من نبعة واحدة .

على أن الغريب أن الست «ام حنا» لم تكن ترى اي تقارب بين ابنتيها هاتين ، فهي منذ اربع عشرة سنة ، أي منذ اليــوم الذي وقعت عيناها علــى وجه جرجيت . قد ايقنت ملء قلبها أن ثمة شؤما قد اطل على بيتها مع هذا اللون الذي ما كانت لتألفه ، وبخاصة هذا الالتواء الذي ما كانت لتستطيع ازالته أو تقويمه من انف هذه المخلوقة . بالرغم من كل مــا بذلته من جهــود لدى الأطبــة واهل الخبــرة ..

ولما ولدت « روز » بعد سنتين كان اول ما همها من أمرها تبين اللون ووضع الانف ، فسرها انها قد برئت من ذينك العيبين اللذين أقضا مضجعها ، وشعرت كأنالعذراء

قد قبلت نذورها واستجابت الى ضراعتها . فنفحت وليدتها الثانية كل هذا الجمال الذي طالما حلمت برؤيته ..

ولم تعبأ كثيرا بانوثة المولودة الجديدة مع ما تعلمه من كره زوجها للاناث وولعه بالصبية . فهي لا تزال كزوجها في بحبوحة الشباب، ولن تيأس من ذكر يطالعهما فيما بعد. وحسب زوجها من رحمة السماء ان جنبته مرأى ذلك السواد وهذا التشويه في ذريته مرة اخرى .

على أن جرجيت وحدها هي التي لم تنل خيرا من هذه الولادة، ذلك ان بقية الحنان التي كانت تنعم بها، أو يرجى ان تنعم بها في كنف والديها ، قد انصرفت جميعا الى هذا المزاحم الجديد .

وهكذا نشأت الاختان في وضعين لا تكافؤ بينهما البتة : نعيم لا نفاد له ، وشقاء لا خلاص منه ، وكان على جرجيت ان تتحمل في جلد هذا التباين البعيد بينهما وبين شقيقتها ، ولقد ألفته حتى كأنما ألقي في رُوعها انه لزام لا مناص منه ، ولا يد لمخلوق فيه ، ما دام مرده الى ذلك التباين في الخلقة التي أرادها الله لكل منهما .

وما كان في وسعها أن تتعمق هذه الفوارق ، وان تناقش هذه الموازين التي يرجح فيها البياض ويشيل

السواد ، وينحط فيها الانف المائل ليرتفع الانف المستقيم ، حتى ليحرم عليها ان تأكل سوى فضلات اختها ، وان تلبس سوى الخلق من ثيابها، وحتى ليحظر عليها أن تدنو من قاعة الاستقبال حين يكون فيها أي زائر ! ..

ولكن عبثا تحاول أن تنسى وضعها الشاذ هذا ما دامت مدفوعة الى تذكره كلما سمعت صوت امها تدعوها بذلك الاسم الكريه الوحيد « زرقاء » وكلما ثار غضب ابيها لأمر لا يرضاه، وما أكثر الاشياء التي لا ترضيه في البيت!.

وكان لابيها اخلاق من نوع غريب حقا ، تمتزج فيها المفارقات امتزاجا عجيبا ، فبينا هو هادئ حكيم يناقش زوجته في هذا الحيف الذي تصبه على جرجيت ، ذاكراً لها مواهبها المرموقة ، وخصائصها الطيبة ورقتها المثيرة للحنان، اذا هو بعد قليل اشد قسوة من الحجارة لا يكاد صدره يتسع لاية هفوة تقترفها هذه الزرقاء .. وينقض عليها بأي شيء تناله يده لا يبالي اين وقع من جسمها!.ولكن سرعان ما يغمره الندم ، فاذا هو مكب على جرجيت يطوقها بذراعيه ويمسح دموعها بقبلاته الحارة على مشهد من والدتها الحائرة .

وكان اشد ما يخيف جرجيت من ساعات النهار اوقات الصباح ، ذلك أن الاب قلما يستطيع مغادرة البيت الى عمله اليومي في الجزارة الا بعد ان يملأ البيت ضجيجا وعجيجا ، وكأن عليه أن يبدأ يومه بالتفتيش

الدقيق على كل ما فـي البيت مـن اشياء ليناقش زوجته واولاده حسابها جميعا ؛ فهذه القدور في غير محلها المعد لها ، وهذه الفرش قد تأخر طيها وذلك حنا الصغير لـم يحكم غطاؤه فلا بد انه تعرض لبرد الليل ..

وتثور المرأة ، وقد عجزت عن ضبط عواطفها،لتردعه عن هـذا التنتيش الذي لا تعترف له بحقه فيـه ، فاذا الصراخ والزعيق ، واذا الضرب والتحقيق ، واذا جرجيت بعد ذلك تحمل القسط الاوفر من الاضطراب لانها بنظره المسئولة الوحيدة عـن مساعدة امها في تدبير المنزل ، ثم لا يترك البيت الا وقد انقلب الى ما يشبه ساحة المعركة بما فيها من اشلاء وحطام ! ..

وكان على جرجيت ان تحضر دروسهافيهذا الوسط القلق لتحافظ على تقدمها المدرسي ، الذي تراه الوسيلـة الوحيدة لرضوان أبيها وتخفيف شرته ولتعويض ما فقدته في نظر امها من ظواهر معجبة . وقـد استطاعت ان تشق طريقها الى الصفوف المتوسطة رغم كل هذه العقبات،بعد ان احرزت الشهادة الابتدائية من أول متحان . بيد انهـا لم تكن بقادرة على التخلص من اثـر ذلـك الاضطراب المستمر ، وذلك الحظ النكد الذي يلاحقها حتى المدرسة. ذلك انها قد اصبحت تخجل من هذا التفاوت الذي تطالعه

التلميذات والمعلمات ابدا بينها وبين اختها في الزي وسائر المظاهر •• فهي لا تستطيع ان تتجاهل ما يتهامس به هؤلاء في خلواتهن عندما يرينها في ثوب من اثواب اختها ، او عندما يلحظ استكبار(روزيت)عليها واعراضها عنها في اثناء الفرص ما بين الدروس ، ولا تتمالك أن تحجب وجهها عنهن بكتابها المفتوح لتعبث من ورائه بأرنبة انفها في اناة حينا وفي ثورة ونقمة أحيانا !•

ولقد كان في وسع جرجيت أن تغضي على هذا وذاك ، وان تأنس بالعزلة التي فرضتها على نفسها حين تدع للتلميذات أن يملأن فناء المدرسة حركة وجلبة لتنطوي على كتابها في زاويتها المألوفة من الفناء ، ولكن• كيف تطيق أن تصرف عينيها عن هذا التفاوت الآخر بينها وبين سائر اترابها من هؤلاء التلميذات ! ••

لقد كان جو المتوسطة التي تضمها واياهن اشبه بمعرض للازياء والزخارف منه بمدرسة ، فليس هناك تلميذة أو معلمة لا تزين معاصمها ساعة سويسرية من احدث طراز ، الى جانب عدد من اساور من ذهب ، وليس ثمة تلميذة أو معلمة لا تكسو جوارب النيلون الاميركية ساقيها ، كأنها السحابة الرقيقة تشف عما وراءها من روائع ••

ولا جرم ان لدروس استاذ الاخلاق أثرا فـي عقل جرجيت غير منكور ، ولا سيما عندما يكشف عن رأيه في ترف التلميذات وانكبابهن على بهارج الزينة ، وفي اثر هذا التبرج في اقتصاد الوطن واخـلاق الجيل ، وعندما يتحمس لآرائه هـذه فيصرح بانتقاده للحكومة التـي لا تكره التلميذات على الحشمة وعلى وحدة الزي ، وعلى التحرر من قيود هذه المظاهر التي تساعد في نظره علـى افساد المجتمع وتوسيع هوة التباين بين طبقات الامة .. وخصوصا عندما يصب حملاته على شغف النساء بالحلي ليبين أن في اقبالهن على ذلك تجميدا لثروة الامة من واجب الدولة أن تمنعه بالقوة ، وان تعالجه بضرائب ثقيلة تكره النساء على التخلي عن حلاهن وتحويلها الـى نقد للتداول ، او الى انشاء مشروعات وطنيـة تحفظ البلاد من الارتماء في احضان الشركات الاجنبية .. ، ثم مـا يستتبع هذه الحملات من تهكم بالمرأة التي تطالب بالحقوق السياسية ومساواة الرجل في اعماله ، وقد نسيت كل ما تغوص فيه من هذه البهارج التي تجعلها متعة رخيصة في نظر الرجـل ، ودميـة سخيفة لعرض المساحيق والازياء البدائيـة ...

ولاجرم انها لتجد نشوة سعيدة عندما تستمع الـى ذلك الاستاذ يختم توجيهاته باطراء التلميذات المنصرفات

عن هذه السخائف ، ضاربا بها نفسهـا المثل على هـذه الفضيلـة .

أجل .. لقد كان لدروس هـذا الاستاذ أثـر غير منكور في عقل جرجيت ، من شأنه ان يهون عليها بعض ما تقاسيه .. ولكن .. متى كان العقل وحده هو الذي يسيطر على توجيه النفوس ؟ . ان هناك واقعا لا تطيق تغييرة بمجرد اقتناعها بهذه الحقائق ، وان هناك تيـارا جارفا ليس من الحق ان يفرض على جرجيت وحدهاتجنب أو اذيه لتعيش على هامش الحياة في عزلتها المثيرة لفضول التلميذات والمعلمات ! ..

ثم هي لم تفرض على نفسها هذا الحرمان باختيارها المطلق ، واقتناعا منها بفضيلته ، ولكنها مقهورة عليه قهرا لا يزايلها التفكير بقسوته ، وهيهات ان تقدر على نسيان ذلك الميزان الظالم الذي يمنح أختها ، باحدى كفتيه ، الحرير والذهب والنيلون والحب .. ويقذفها هيبالخرق البالية ، والجوارب الممزقة ، والخزي والهوان ، بالكفة الاخـرى ! .

فكيف تخدع نفسها عن كل هذه الوقائع لتؤمـن بانها تتقبل هذا الحرمان نشدانا للخير وايثاراً للاخلاق !.

كلا •• ثم كلا •• انها لتؤثر أن تكون كواحدة من اولئك التلميذات تنعم بالحرير والذهب ، على ان تكون في هذه الوحشة المهينـــة ، وليمح الاستاذ اسمها ، بعــد ذلك ، من قائمة الصالحات ، وليرمها مع مثيلاتها اذا كان لها مثيلات بما شاء من النقد المبطن اللاذع •• ان ذلك خير لها الف مرة من أن تكون مركز الشذوذ بين هذا المجتمع الحاشد من رفيقاتها اللواتي لا يزيدهن اطراء الاستاذ لها الا اغرابا في الضحك منها ، والتهامس عليها ••

* * *

وكان ثمة شيء آخر قد بــدأ يعمل عمله في قلب جرجيت ، فيضاعف من هذه التصورات الموجعة ، ذلك مــا كانت تلحظه مــن اهتمام الشباب بشقيقتها «روز» وانصباب اعينهم عليها من دونها كلما بدت لهم في طريقها من المدرسة واليها ، ولعلها قد سمعت باذنهــا بعض مــا يتسارّ به اولئك الثلة من الطلاب المترفين ، الذين يتركون مدرستهم قبل موعد الدروس في الصباح ، أو قبل موعد الانصراف في المساء ، ليتجمعوا على مقربة من متوسطة البنات بانتظار مرور روز ، تطل عليهــم في بزتها الأنيقة الفاتنة ، وجمتهــا المضفورة الى الاعلى ، فلا يتمالكون

أن يتبعوها بأحداقهم الشرهة الى آخر الطريق .

وقد تكون جرجيت ممن لا يستهويهن هذا الضرب من العبث الوقح يطارد بــه الشباب الفتيات ،ولكنها لا تستطيع ان تتناسى انها لم تحرم من ذلك العبث باختيارها ايضا ، وانما صرف عنها الى اختها تفضيلا لها واعترافــا بتفوقها ، وإيثارا لذلك الانف الذي لا يشوبه الانحراف..

وحسبها ذلك صدعا لشعورها واحتقارا لشأنها من حقه ان يضاعف أساها ، ويوغل في تجريح قلبها !..

ولطالما همت بأن تلفت نظر امها الى هذا العبث تتعرض له روز ذاهبة وآيبة دون أن تبدي ضيقا به ، فيصرفها عن ذلك الخوف من لسانها الذي باتت تضيق بلسعاتــه الطائشة اشد الضيق .. وهي لم تنس أنهــا جربت مثل ذلك ذات يوم قريب فكان نصيبها دفعة من الفاظ قذرة لم تألفها من امها قط . وجذبات وجيعة ذهبت بخصلة من شعرها باصابع تلك الام ..

وهكذا كان على جرجيت ان تخنق في صدرها كل هذه الهواجس . دون أن تجد لها متنفسا ، وان تغرق فــي اوهامها الصاخبة كلما خلت الى نفسها في المدرسة أو على الفراش ، حتى باتت تخشى ان تصير بها هذه الاخيله الــى

الاخفاق في الامتحان القريب للشهادة المتوسطة ، كما صارت بها الى المرض الذي قضى برسوبها في الفصل السابق ، فأتاح لاختها أن تلحق بها في صف الشهادة ، ليتقدما معا الى الامتحان في نهاية هذا العام .

وعبثا جاهدت نفسها لتجنب هذه الاخيلة المرهقة ، فما كان لها الى ذلك من سبيل ، اذ ما لبثت أن طغت على نشاطها المدرسي كما توقعت ، فاذا هي تفقد القدرة على تركيز ذهنها عند شرح الدروس واذا هي تشغلها عن متابعة القواعد الرئيسية في مادة الرياضيات خاصة ، فلا تكاد تفهم بعد ذلك ما يقوم على هذه الدساتير من حلول للمعادلات التي يتطلبها منهاج الشهادة . واذا تقدمها اخيرا يكاد ينحصر في الادب والانشاء وقسم الاخلاق من المعلومات المدنية خاصة .. مما جعلها موضع الاعجاب لدى مدرسي هذه المواد ، كما جعلها موضع الاستغراب والامتعاض لدى مدرسي المواد الاخرى .

وتفجر صدرها بلواعج مبهمة نحو شقيقتها روز لا تحسن لها تحديدا ، ولكنها تعرف شيئا واحدا هو انها اصبحت تنظر اليها نظر السجين الى حارسه ، فهو يدرك ان ليس للحارس يد في حجزه ، ولكنه لا يستطيع الا أن يمقت سحنته لانه هو الذي يحول بينه وبين الحرية .

وكان بودها الآن تحقد على اختها . ولكم حاولت أن تختلق لها المسوّغات تحتال لتبرئتها من تبعة ما تعانيه، ولكن عبثا تفعل فهي لا تقدر كذلك ان تنسى انها هي التي احتكرت قلب والديها فتركتها كاليتيم محرومة من كل حق بهما ، وانها هي التي تحتكر ايثارهما فتنفرد دونها بهذه الامتيازات من الثياب والحلي والحب .. لتعيش الى جانبها منبوذة مرذولة ، كالغرسة الضعيفة بجانب الشجرة الكبيرة .

واستمرت هذه العقد النفسية في طريقها من النمو والتطور في جوانح جرجيت ، وقد وجدت مسوغا لها هذه المرة في دروس الاخلاق نفسها، اذ كان الاستاذ يشرح لتلميذاته اطوار الاسرة وعوامل الانسجام والتشويش في تكوينها ، وما يتصل بذلك من واجبات الابوين واثر تربيتهما في نفوس الابناء ، وما يتبع هذا وذاك من خطر المحاباة بينهم ، ثم فضل الانصاف على توجيههم السليم .

ووجدت لنفسها العذر في أن تحقد على روز،وتطلق لحقدها العنان ، ووجدت نفسها كذلك تفكر في تصرف ابويها فتنكشف لعينيها آفاق رهيبة من الظلم لم تكن لتجرؤ على تصورها قبل اليوم .. وكأنها آمنت لاول مرة انها مخلوق له حق الحياة ، وانها ضحية لاهواء جامحة

لا يجوز ان تستمر في سبيلها الخاطيء بعد اليوم •

ولكن •• انّى لها ان تقتحم معقل الابوة فتصارح والديها بما يجول في صدرها من ذلك ، وهما لـم يقرآ هذه الكتب ، ولم يستمعا لدروس الاستاذ ؟ !

واضطرت الى الاستمرار في خنق تصوراتها مـن جديد ، تترقب لها الفرصة المواتية ، ورأت ان لا سبيل الى هذه الفرصة الا بعد حين يوم تظفر بشهادة الدراسة المتوسطة ، فيتاح لها بذلك ان تنـال وظيفة في التعليم الابتدائي ، تساعدها على كفاية نفسها ما تحتاجه ، وتفسح لها من ثم الطريق الى استنقاذ شخصيتها من ذلك الهوان الساحق •• ويومئذ فقط تستطيع ان تقول بملء فيهـا لذينك الابوين : «لقد اسرفتما في التعسف•• فحسبكما» •

ولكن •• الويل لها اذا اخطأها التوفيق في ذلـك الامتحان ! •• فان عليها عندئذ ان تصمد لافانين جديدة من هذا القهر ، وستجد نفسها اعجز ما تكون عن ارسال مثل هذا القول الذي اعدته لذلك اليوم •

* * *

لم تكن موضوعات الامتحان العام على شيء كثير

من الصعوبة التي تصورها التلاميذ ، ولا كانت كذلك من السهولة بحيث يستطيعها الكسالى والمقصرون منهم ، بل كانت مرنة تتسع للجهد الكبير،ولا تضيق بالعمل الصغير. على انها كانت لدى عدد منهم اشبه بالسد الذي لا يقتحم . وقد انسحب من قاعة الفحص في اليوم الاول جماعة زعموا انهم مرضى ، وليس مرضهم في الحقيقة الا الشك في قدراتهم .

وتتابع الانسحاب في الايام التالية حتى استقر المجموع على ثلثي الطلاب المتقدمين للامتحان ..

وكانت جرجيت بين اللواتي صبرن انفسهن الى مقربة من النهاية في مركز البنات ، وقد استطاعت ان تكافح عجزها ببسالة فأجابت على اكثر من نصف الاسئلة من كل مادة ، اجابات متفاوتة . فيها الصحيح القوي ، وفيها السقيم الضعيف . وكان املها قد تركز على مادة الرياضيات ، وقد احست ان حظها يتأرجح في كفة القدر ، فلما وزعت الاسئلة ومرت عليها بنظرها سقط في يدها ، وغشيها شبه دوار لم تفق منه الا بعد نصف ساعة .

وكان مستحيلا أن تخدع نفسها عن الواقع ، فليس في الرياضيات متسع الا لاحد أمرين : العمل ، أو ترك العمل . ولقد فوجئت بمثل هذه العثرة من قبل في مادة الاجتماعيات

فلم يتعذر عليها ان تنشيء من اخلاط المعلومات ما يسود صفحتين . اما الآن فلا سبيل الى هذا الكذب على النفس. انها امام معادلات ورموز لاتذكر عنها شيئا بل لا تكـاد تفهم شيئا من مدلول الاسئلة نفسها ، وهي تعلم أن الشرط الاول في الاجابة ان يعرف الطالب حدود الامور المسئول عنها أولا ، والا كانت كل محاولاته لغوا لا طائل وراءه .

وكان مستحيلا كذلك ان تنتظر اية معونة من أيـة تلميذة أو مراقبة ، فهي يائسةمنذ اليوم الاول ، وليس بين المراقبات والمراقبين من تعرف له وجها سوى تلـك الراهبة التي قصرت معونتها على شقيقتها ، تسدد خطاها وتوجهها الى الاجوبة الصحيحة بكل ما وسعها ! .

وانسابت من صدرها زفرة طويلة لم تطق كتمانها، ووجدت يدها تمتد في غير وعي لتتحسس من انفها موضع ذلك الالتواء الذي لحقها بشؤمه حتى قاعة الامتحان، فحال بينها وبين معونة هذه المراقبة .

ولم تشأ أن تعيد أوراقها بيضاء كما تسلمتها ، فتركت ليدها أن ترسم ، في وسط احدى الصفحات ، هيكل قلب أطبقت عليه قبضة جبـار مزقت غلافه ، واخترقت صميمه باظافرها الحادة الدامية ...

وعجزت ساقاها عن السير بهاالى منضدةرئيس القاعة. لتدفع اليه بالاوراق فاذا هي تهوي على جانبها الايمن ، وكادت تضرب الارض بجبهتهـا لولا يـد المراقب التي أسعفتها في اللحظة المناسبة .

* * *

.. وطوى الزمن شهرين على يوم الامتحان ...

وكانت السيارة قـد اشرفت بنا علـى سهل دمشق الشمالي ، وبدأت نسائم الاصيل تهب على وجوهنا ناعشة تحمل آثار الرطوبة من اشجار الكرمة الممتدة الى اقصـى الافـق .

ولما قاربت السيارة ظل الاشجار الشامخة ، امـام ذلك البناء الضخم الابيض الرابض على اطراف «دومـة» تمهلت في سيرها حتى جمدت ..

وسمعت هناك صوت امرأة لم انتبه الى وجودهـا بيننا قبل تلك اللحظة ، تهتف في نبرات حزينة كسيرة : «جرجيت ! . حبيبتي جرجيت ! ..»

ورأيت المرأة هابطة من السيارة تلدم وجهها بكفيها

وهي متحاملة نحو مدخل البناء الابيض •• وكانت المرأة هي «ام حنا» •• وعلمت ساعتئذ ان البناء هو مستشفى (القصير) للمجانين ، ثم علمت أن جرجيت قد اصبحت نزيلة هذا المعتقل منذ خمسين يوما ••



شريد

عرفت « رفيقا » قبل خمس عشرة سنة ، اذ كان تلميذا في ابتدائية القرية ، وكان يعجبني منه هدوؤه الغريب ، وبعده عن المشاركة في عبث رفاقه . واستطيع القول : لقد كان رفيق اثناء ذلك نسيج وحده في عزلته وجده وكآبته ، وربما كان مرد ذلك الى نشأته في بيت جفته النعمة وغمره الحرمان ، فناء صدره بأعبائه ، فكاد يحرمه حتى الورق والدفاتر لولا عطف معلمه الذي كان معجبا مثلي بأخلاقه وذكائه . فلم يضن عليه بتوفير ما يعوزه من أدوات المدرسة ، يجتزيء ثمنها من مرتبه الضئيل ، ليحفظ له حق التعلم ، بعد أن أقنع ابويه بابقائه في المدرسة ريثما يتم منهاج الشهادة . وكان في نيته أن يستمر في معونته الى ما بعد الدراسة الابتدائية ، فيسعى لالحاقه بمدرسة صناعية تهيئه لتحمل اعباء اهله الذين انتهى عائلهم الشيخ الى حدود العجز . ولكن سرعان ما عاقه القدر عن تحقيق بغيته

الكريمة فمات الاب ، وقطع رفيق عن المدرسة وهو على ابواب الشهادة ، ليقوم بعمل يساعد والدته على كفاية نفسه واخوته الثلاثة الصغار الذين خلفهم لها الزوج الراحل ..

وتتابعت الايام على تلميذ الامس حتى وافاه الشباب ، وقد اخشوشنت يداه وتشققت قدماه ، واصبح وكأنه رجل في الثلاثين لاغلام في السابعة عشرة ، ومع أنه ألف اعمال المطرقة في تكسير الحجارة على الطرق ، فقد كانت بنيته الضعيفة تحول دون استمراره على العمل بصورة متواصلة ، اذ كثيرا ما يعتريه المرض من الزحار أو البرد ، فيلزم فراشه حتى يستهلك كل ما ادخرت والدته من مجهودها ومجهوده .. لذلك كان لا مندوحة لها عن التفكير بايجاد عمل آخر لولدها غير تكسير الحجارة ، ينقذه من الاشغال الشاقة .

ولم يكن سبيل لتحقيق هذا الامل الا في الوظيفة ، وطبيعي الا سبيل الى الوظيفة مهما تكن تافهة الا بالوساطة ..

ووجدت الام منشودها في بيت كبير القرية ، حيث اقامت شطرا من الزمن تخيط ثياب الخدم والفلاحين ، وتساعد في اعمال المنزل ، وتتوسل الى سيدات البيت

الكبير لتحقيق مطلبها الصغير ، حتى استطاعت اخيرا أن تقنعهن بمعونتها لدى سيد الدار ، فينفحها هذا برسالة الى ذي مقام في المدينة ، سرعان ما عملت عمل السحر ، فاذا ولدها آذن في احدى المصالح ! ..

والآذن شيء صغير ، ولكنه في هذه البلاد اشبه بالثور الذي يحمل الدنيا ، ان عليه ان يقوم بكل شيء في الديوان وفي دور الموظفين الكبار ، فهو حامل الاوراق وهو الفراش ، وهو مقدم القهوة والدخائن لرواد الدائرة من الأعيان والوجهاء ، الذين لا يرون في دواوين الدولة اكثر من ناد أو مقهى ، يلتقون فيه لتقطيع الوقت وتسوية المصالح ، وهو اخيرا خادم الخدم في البيوت ، يكنس السلالم وينقل الماء ويشتري الخضار من الاسواق ، ويحني كاهله لركوب السادة الصغار .. ثم هو بعد هذا وهذا مجبر على الطاعة في كل ما يؤمر ، لا حق له باعتراض أو شكوى . والويل له اذا لم يعرف هذا كله ولم يتقنه !.

لم يكن رفيق ممن يخونهم الذكاء في تقدير الامور ، فهو يعلم انه في هذه الدائرة اشبه باليتيم في مأدبة اللئيم ، لا وزن له الا بمقدار ما يبذل من جهد في ارضاء رؤسائه ، لذلك ركز عنايته في اتقان خدمتهم وا لاستحواذ على مرضاتهم بأي ثمن .

وشيء آخر افاده من تجاربه في هذه الدائرة • ذلك أن أقصر طريق الى النجاح هــو أن يظفر بعطف رئيس الدائرة . ثم لا عليــه بعد ذلك أن يرضى الآخــرون أو يغضبوا • فهو وهم سواء في التسابق الى خدمــة هــذا «البيك» واسترضائــه ! •

وكان « البيك »هذا غلاما نحيف البنية انيق الثوب، معنياً بالاصباغ والادهان ، يسبغ منها على وجهه ورأسه، مهتما بلهجته الانثوية ، يرققها وينغمها حتى لتحسبه فتاة في ثياب غلام ••ولكنه مع ذلك قوي اشدما تكون القوة، اذ يدعمه في الدوائر العالية مرجع مرموق ، يفرغ عليــه الوان المهابة ، فلا يعجزه شيء ولا يقيم وزنا لاي انتقاد، حتى لتراه يتصرف بوثائق النفط كما يشاء ، وفي وقــت كان فيه النفط شريان البلاد ، لا حياة لها الا في جريانــه وتوزيعه على البيوت والسيارات والمحركات ، كما يتوزع الدم في عروق الجسم ••وبالرغم من كل ما يعانيه هؤلاء المستهلكون من شذوذه في هذا التصرف ، فقــد كــان متعذرا أن تجد واحدا منهم لا يسرف في امتداحه والتنويه بعدالته •• زلفى اليه وطعما في استزادة المخصصات التي عُهد اليه بتقديرها وتوزيعها دون حساب !••

أجل لم يكن هذا ليفوت ادراك رفيق ، فهو عالــم

بمكانة رئيسه وقوته . لذلك ألف منه ان يكون بين يديه كالجرس الذي يدعوه اليه . لا يكاد يشير حتى يسبقه الى ما يريده . ولا يكاد يصدر الامر حتى يكون اطوع له من بنانه . وكان عليه أن يعد له طعام المساء من كل يوم سواء في منزله أو عند أمه .

* * *

وبحسب هذه الخطة اليومية كانت المائدة معدة ذلك المساء بانتظار السيد الأنيق . ولما أخذ مكانه على المائدة، كان رفيق واقفا على عادته عند مدخل الغرفة مترقبا حركة شفتيه ليقوم بما يجب من الخدمة .

ولكن السيد الانيق ابى أن يغير طريقته هذه المرة ، فاذا هو يشير الى الخادم التافه بالجلوس الى جانبه ليشاركه في تناول الطعام ..

وما كان في وسع رفيق أن يجروء على تحقيق هذه الرغبة العجيبة .. فكان عليه أن يعتذر وان يلح في الاعتذار . على أن اعتذاره لم يجد قبولا ، وسرعان ما نهض «البيك» من مجلسه ، وقد ارتسمت على وجهه الضئيل الباهت ابتسامة من نوع غريب ، ثم تقدم نحو

رفيق حتى جعل ساعده العارية على ظهره ، ومد يسراه ليداعب بأناملها ذات الاظافر المثلثة ذقن الخادم الذي وقف مشدوها فاغر الفم لا يعلم ماذا يجب أن يفعل ! ..

وسمع رفيق قول سيده وهو يضغط على عاتقة المتحجر : «ستكون جد مسرور يا عزيزي .. فلنتناول طعامنا معا ، ثم لنبت الليلة معا» ..

وكان متعذرا على رفيق الساذج ان يفهم كل ما وراء هذه الكلمات ، وكان عسيرا عليه أن يدرك السبب الذي وضع لفظة (عزيزي) مكان كلمة (ولك) التي اعتادتها أذناه كل هذه السنوات الاربع .. غير انه كان لا يزال محتفظا ببقية من فطنته القديمة ، فشم من خلالها رائحة غير طيبة ، ووجد نفسه لاول مرة مؤمنا بان القسوة افضل من اللين ، وان (ولك) الجارحة المهينة اكرم له وارأف به من (عزيزي) الناعمة المنغمة كاللحن البارع ! ..

وفي غير وعي ألفى نفسه يحاول التملص من ذراعي البيك ، كأنه مختنق في جو فسد هواؤه ويريد الفرار الى الهواء الطلق ..

ويحس السيد بهذه المحاولة فيقبض بيمينه أعلى قميص رفيق ، ويرسل اليسرى الى مكان آخر .. وقد لمعت عيناه المستديرتان ببارق احمر رهيب ما لبث ان ترك

اثره في نفس رفيق ، فاذا هو مندفع بأقصى قوته صـوب الباب يفتحه على غير هدى ، وينقذف في طريقـه الـى الشارع كالقنبلة ، وهو يصرخ : « لا .. لا .. ليس هذا من شأني» ..

ويسمع الخادم صوت سيده يهتف به وقد تهدج من الغضب ، وسرت فيه رجفة مريبة : «خير لك أن تعود . رفيق !.. ارجع .. ارجع والا خسرت وظيفتك » .

وغلبت على رفيق ثورة اشمئزاز جارف فلم يتمالـك أن صاح به وهو يصلح من وضع ثوبه : « إن شرفي أغلى من الوظيفة..ولا يزال في يدي قدرة على حمل المعول».

* * *

واقبل رفيق على عمله فـي الديوان ، كعادته كـل صباح كأن لم يحدث شيء ، واستمر على عادته يتنقـل بين هذه الدائرة وتلك كلما سمع نداء ، أو لامس جرس مسمعـه .

وكان ذات صباح مكبا على تنظيف ردهة الدائرة عندما شعر بيد السيد الانيق تدغدغ ظهره في لطف ، فاذا هو مجفل يتراجع قليلا ، وقد احتضن عصا مكنسته في غير وعي .

وسمع صوت صاحبه يخاطبه في وداعة : (ألم تفكر في الامر ! •• اظن أربعة أيام كافية لاقلاعك عن تمردك)•

ولكن الفتى لم يزد على أن قال : (خير لك أن تبحث عن سواي •• إن الايام غير قادرة على تغيير طباعي) ••

وانحنى على مكنسته يستأنف عمله • وثار الغبار في وجه السيد الانيق ، حتى لم يطق الا أن يحجب انفه بمنديله الحريري ، وجعل يقول وقد اختلفت لهجته وتبدلت بالرقة شدة : « اذن فستترك عملك حتما » •

القى هذه الكلمة ومضى نحو مكتبه وهو يسمع رد رفيق الذي كان اشبه بتحد جامح لكل قوى الارض : (الرزق على الله) •

وانتهى رفيق بكناسته الى أسفل الدرج • وكانت الساعة تدق السابعة ، ولم يكن في البناء احد الا بائع القهوة الذي اسرع الى حانوته الصغير تحت الدرج ينظف آنيته ويعد عدته . فلما بصر برفيق حياه ، وكأنما لاحظ في وجهه شيئا غير مألوف فنبهه الى ذلك وسأله عن سببه • ولكن رفيق انكر كل شيء ، وراح يحسو جرعات القهوة التي قدمها اليه في هدوء مصطنع ••

وخرج السيد الانيق من البناء مارًّا بين الآذن وصاحب

القهوة دون أن يعير احدهما نظرة ••

وما هي الا ساعــة حتى كان رفيق في السجن •• دلك أن مكتب الدائرة قـد وجد مفتوحـا • وكذلـك الخزانة •• وفد تحطم احد أدراجها ثم تبين أن خمسمئة ليرة قد اختفت من مكانها هناك !•

* * *

كان البلاء شديدا كما يظهر على رفيق ، فقد سمع الناس استغاثاته المتسربة من داخل السجن ليالي عــدة ، ثم لم تنقطع هذه الاستغاثات الا بعد أن أقــر على نفســه بالسرقة •• وذيل اقراره بتوقيعه •

وجاءت التجربة التالية حين سئل عن مكان المال فلم يجد سوى امه يزعم انه اودعــه لديها •• وكان لزاما أن يفتش المنزل • فنقبت ارضه عبثا ثم سيقت امه الى السجن تمكث شهرا كاملا دون فائدة •

وانتقل الاتهام الى اكبر اخوته ثم الى عدد آخــر من الناس فجيء بهم واحداً تلو الآخر ثم أخلي سبيلهم جميعا•

وأخرج رفيق الى البساتين حيث ادعى تخبئة المال ، ثم انتهى كل ذلك في غير طائــل •

واخيرا .. وبعد ثلاثة اشهر من الجلد والسجن قيض لرفيق ان يظفر ببراءتـــه ، اذ اصدر قاضي التحقيق قراره الفاصل بمنع محاكمته ، فودع السجن وقد عطبت قدمـــه اليمنى وسرح من الوظيفة ، ولم يبق عليه الا أن يقتل بقيه عمره شريدا وراء القوت ، بعد أن فقد كل قدرة على العمل الشريف .

نهايـة مـدرس

رفع الطبيب سماعته عن صدر (صلاح) ثم وضع يده على ظهر سريره ، وطوى احدى ساقيه على الاخرى ، ثم أخذ يتحدث مع زميله بالانكليزية . وكانت عينا الطبيب الثاني شاخصتين الى وجه المريض ، كأنه يتابع وصف زميله لحالته ، ولم يكن صلاح على حذق بهذه اللغة ، ولكنه لم يفته الفهم لبعض الكلمات ، مما يتقارب في لفظه ومدلوله مع الفرنسية التي يتقنها .. فأدرك خلاصة الحديث ، غير انه لم يفاجأ بذلك ، فهو على علم تام بحالته ، ولعله ادرى بما انتهى اليه مـن الاطباء انفسهم .. إن مقاومـة رئتيه لعصيات السل قد بدأت تتضاءل ، بل ربما بدأت تتحطم ، وهو يحس ذلك واضحا في هذا الدم الاسود الذي يدفعه من حلقه بين الوقت والآخر ، ثم في ذلـك الضعف العام الذي يشل اعصابه فلا يكاد يطيق الحركة الا في جهد .

بيد انه مع ذلك واثق من التقدم ، وان لم يكن واثقا

من الشفاء ، وليست هذه هي المرة الاولى التي يصير فيها الى هذا الوضع ، ففي مثل هذا اليوم من الصيف الماضي سمع هذه الكلمات نفسها من طبيبه ، وهي نفس الكلمات التي اسمعه اياها قبل سنتين ، وفي كل مرة كان حظه من التقدم مماثلا لما سبق ••ولا يزال امله كبيرا بأن لا تنطوي بقية هذا الصيف قبل أن يسترد بعض قوته التي أخذت تستيقظ ليستأنف عمله من جديد •

وتحول الطبيب الى صلاح يخاطبه في عطف : «لقد اتعبت نفسك كثيرا يا بني •• وكان عليك ان تنقطع عن التدريس عاما كاملا على الاقل ،ليتاح لك أن تتغلب نهائيا على الجرثوم •• والا ••

واتم صلاح عبارة طبيبه : «والا فسيطول ترددي على المصح •• وقد يقضي علي الجرثوم اخيرا» ••

ـ طبعا •• وما دمت تعلم ذلك فما الذي يمنعك من تحقيق نصائحي !••

وصمت صلاح لحظة قبل أن يجيب ، ثم اكتفى بأن يقول له : « ثق يا حضرة الطبيب انني لم أعص نصائحك بارادتي •• ومع ذلك فسأحاول» •

ـ حسنا •• بشرط أن تبدأ محاولتك منذ اليوم ••

اريد أن أراك تستعيد مرحك القديم •• إن تفاؤل المريض سبب رئيسي في نجاح العلاج » ••

قال الطبيب هذا وهو يغادر القاعة مع زميله ، ليترك للممرضة الشابة أن تسجل ملاحظاته على لوحة السرير •• ولم تشأ هذه أن تنسحب قبل أن تؤكد لصلاح ما سمعه من طبيبه مرة ثانية • فهي تستغرب منه هذا العبوس الذي يجلل وجهه ، وتذكره بتلك الطرائف التي كان يملأ بها جو القاعة قبل سنتين ، فتبعث النشاط في صدور رفاقه المرضى ، وتهب لهم من القوة ما لا تفعله حقن الهواء وجرعات الدواء •

وشكر صلاح للفتاة هذا الاطراء ، وهو يشيعها بنظرة الى دهليز المصح ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه ، ليغرق في دهول عميق ، وهو يداعب باناملة الشاحبة بقعة النور التي تسربت الى غطائه من خلال النافذة ••

لقد أثارت كلمات الطبيب والممرضة كثيرا من الخواطر الحزينة في صدر صلاح ، فهو يعرف مثلهما حاجته الى التفاؤل ، وينكر من نفسه ما ينكرانه عليه من هذا التغير الذي محا بشر وجهه ، والقى عليه هذا الغشاء الكئيب من التشاؤم •• ولكنه يعلم من مسوغات هذا التحول ما لم يدركه اطباؤه وممرضوه ، وليس في وسعه أن يكاشفهم به لانه يؤثر أن

يحتفظ بذلك لنفسه وحدها ، ما دام لا يجد خيرا في اظهاره •• وماذا يفيده ان يقول لهؤلاء : انني مضطر الى تجاهل واقعي كله لافرغ الى واجبي!» •

لا شك ان لغة كهذه لاتزال فوق افهام الناس ، مهما يزعموا لانفسهم من الادراك ! ••

وكيف يتاح لصلاح ان يعمل بنصيحة هذا الطبيب فينقطع عن التدريس عاما كاملا ، وهويرى الى شبح الجوع والهوان يتحين منه هذه الفرصة لينقض على امه العجوز وأخواته الثلاث !•• هيهات •• ان الموقف لا يتسع لشيء من ذلك ، وهو حين يتناسى نفسه وداءه في سبيل هؤلاء انما يفعل ذلك بسائق الضرورة التي لا تعترف بالعجز ولا بالمعاذير• ولقد كان من حقه أن يضحك ويسخر، وان يأمل بالراحة ، يوم كان وراءه ابوه الشيخ يمده بالمعونة ويكفيه اعباء هذه الاسرة البائسة •• اما وقد سلبه القدر هذا العون باختطاف ابيه فلم يبق امامه سوى هذه الطريق ، يشقها بساعديه الهزيلين حتى يقضي الله بأمره ••

كانت وفاة والده قبل عامين صدمة رهيبة زلزلت اعصابه ووضعته بغتة تلقاء واقع فوق احتماله فكان من حقه ان يتبدل بتفاؤله القديم هذا التشاؤم ، وان يفتش بمفرده عن السبيل التي تحفظ لهؤلاء النسوة البائسات استمرار الحياة،

ولو جره ذلك الى التضحية بنفسه وصحته ، ولقد ضاقت بـه مذاهب الحياة اول الامر حتى ساقه القدر الى ذلـك الاعلان الذي قرأه في احدى الصحف عن حاجة المعهد (ال•) الى مدرس للرياضيات ، فكان نقطة التحول في وجوده ، اذ تذكر براعته في هذه المادة التي كان فيها مضرب المثل بين اساتذته ورفاقه •• ولم يتردد يومئذ في عرض نفسه على المعهد، ثم لم يتلكأ في قبول الاتفاق الذي أراده مديره على علاتـه ••

وكانت المئتان من الليرات ــ وهي المرتب الذي بدأ به عمله قليلة بالنسبة الى مجموع الساعات الثلاثين التي فرض عليه تدريسها من الرياضيات والعربية ، ولكنها على كل حال نجدة حسنة في هذه الظروف القاسية ، ولا سيما انه لم يكن يملك مـن السلاح ما يستطيع ان يجابه بـه إرادة المدير ، فهو لا يحمل شهادة تفسح له طريق العمل في مدارس الدولة ، اذ ترك المدرسة عندما فاجأه المرض وهو يتأهب لامتحان الشهادة الثانوية ، فكان متعذرا ان يجد العمل في غير واحد من هذه المعاهد الخاصة التي لا يهمها من المدرس سوى كفاءته ••

وعرف المدير موطن الضعف في صلاح، فلم يتوان عن استغلال حاجته ، وابى الا أن يكلفه تدريس العربيـة في صف الكفاءة ، الـى جانب مـادة الرياضيات في صفوفه

البكالوريا ..

وطبيعي ان يشق الامر على صلاح باديء ذي بدء، فقد اضطر الى ان يقبل على دراسة المطلوب من برنامج الادب واللغة والبلاغة دراسة جديدة ، ليتمكن من افهام طلابه، ولكن تصميمه الحازم اعانه على النجاح الى حد بعيد .. وهكذا استطاع المضي في طريقه الجديد ، حتى اشرفت نهاية العام وقد نهكه الجهد ، وعاوده الداء ، فلم يجد بدا من اللجوء الى المصح ليستعيد ما فقده من قدرة تساعده على استئناف العمل في العام القادم ..

وجاءت نتيجة الامتحان بالثمرة المرجوة ، فكان ذلك سببا في عودته الى المعهد ، ولكنه وجد نفسه امام منهاج معدل يرفع حصصه ست ساعات اخرى .. مقابل خمسين ليرة مضافة الى المئتين ، ولم يكن له مندوحة عن القبول ، فراح يدرس من جديد مادة الاخلاق ليعدها لطلابه في صفي الكفاءة الى جانب مادتيه الأخريين .. وبذلك استطاع ان يوفر لنفسه ما يؤمن له ثمن العلاج اليومي بعد تكاليف أهله ؛ ثم يدخر ما يكفيه لرسوم المصح .. على انه ما كاد يفرغ من عمل السنة حتى كان في النهاية من الجهد ...

وها هو ذا الآن يستعرض هذه الوقائع الدامية

من حياته ، ويستعرض في الوقت نفسه آراء اطبائه ، في صمت اشبه بالذهـــول .. ولـكنه ذهـــول يملؤه الرضى بالواقع .. ذلك ان صلاحا واثق من انه لم يعمل سوى ما كان واجبا عمله .. اما نصائحهم اليه بالراحـــة والتفاؤل ، فهي ضرب من العزاء السخيف، أشبه بكلمة تلك المترفة التي ابصرت الجياع يهتفون بحياة الخبز ، فأشارت عليهم بأكل الـكعك !.

ولئن وعد الفتى طبيبه بمحاولة طاعته ، لم يكن ذلـــك منه الا مسايرة لحسم الجدال ، وا لافمن اين له أن ينصرف عن خطته ، وهي الوسيلة الوحيدة التي فرضها عليه القدر، فلا مندوحة عن سلوكها ! ..

لقد وضع تصميمه على أساس ثابت هو أن يعمل تسعة اشهر من كل سنة ، ثم يقضي عطلة الصيف في المصح ... وبذلك وحده يتم له انقاذ امه واخواته الثلاث من الجوع والهوان الى حين .. وليكن بعد ذلك ما يكون .. فليس لديه متسع للتفكير في نفسه ! .

* * *

وتتابعت أيام الصيف تحمل الى صلاح انفاس الصنوبر من رابية المصح ، وكأن تصميمه على الحياة قد ساعد الطب

على عدوه الكمين ، فاذا هو يسترد الكثير من نشاطه ، ويزداد وزن جسمه ، حتى يستشعر القدرة على مغادرة المصح كعهده يوم غادره للمرة الثانية . ولم يكتم سروره بما سمع من تأميل الطبيب ، فقد وجد في تطمينه بشرى شددت من رجائه في ان يستطيع الاستمرار على مواصلة سبيلة المرسومة ..

غير أن الطبيب لا ينفك يطالبه بالمرح والضحك .. ولا يزال يردد على مسمعه قوله السابق : « إن تفاؤل المريض سبب رئيسي في نجاح العلاج » ..

فليمثل نه اذن دور المهرجين ، وليطو في صدره ما لا تصل اليه عين الطبيب .. ولكن أليس من العبث ان يكلف الناسُ عمالَ المناجم ان يرتدوا وجوه السابحين في النور !.. أو ليس من الظلم ان يطلب من مشوهي الحرب ان يستعيدوا نضرة وجوههم المسلوبة ...!

لقد اصبح صلاح مخلوقا غير الذي عرفته هذه القاعة قديماً ، وكأنما دراسته وتدريسه للأدب قد اتصلا بالناحية المظلمة من حياته ، فاذا هو ممتزج باعمى المعرة دون غيره من شخصيات المنهاج ، واذا هو يردد من شعره كل موئس مظلم ، حتى لقد جعل من صاحبه المعري احب الناس الى رفاقه في هذه القاعة ، واقرب الخلق الى

قلوبهم ...

وكثيراً ما يدفعه هذا التشاؤم الى الثورة ، فاذا هو يخطب في رفاقه ، يثير بقية حميتهم للاستفادة من وضعهم الموئس ، فيدعوهم الى وثبة تكره المسئولين من اصحاب السلطان على التفكير بتحسين معايش الفقراء ، وتوفير المعالجة الكاملة للمصابين بهذا الداء ..

ولا ينسى الكلام على مبادىء العدالة الاجتماعية ، فيذكرهم بتنظيمات الاسلام ، التي تفرض على الدولة رعاية ابنائها ، حتى ينال كل منهم حقه من مرافق الحياة ، فاذا هم طالبو اليوم بتحقيق مثله العليا فذلك اقل ما يجب ان يستفيدوه من نظام الهي يؤمن للناس من الخير ما لا يصل الى بعضه كل انظمة الارض ...

ولكن سرعان ما يتذكر ان هذا الاسلام الذي يتحمس في الكلام عن عدالته ، قد اصبح منفياً من حياة الناس في هذه البلاد ، بفضل حكامها الذين أنشأتهم اوربة على كرهه .. فهم لا يحاربون شيئاً كما يحاربونه ، ولا يجدون سبيلا الى تثبيت سلطانهم الا في القضاء على كل آثاره ...

وينظر الى دهشة رفاقه وهم منصتون الى تخيلاته الجميلة ، فيعود الى الواقع ، ويصرف حديثه الى النحو

الذي يفهمونه ••• وها هــم اولاء جميعاً يحفظون كلمته التقليدية : « ان المسلولين اقــدر الناس علــى تحقيــق• العدالة •• انهم ميتون على كل حــال •• فلتكن ميتتهم نبيلة في ساحات النضال ، بدلا من ان يفطسوا منبوذين في الأكواخ والأزقة ••! »

على ان مــن العجيب ان يتجاهل صلاح كل هــذه الثورة عندما تطل عليــه امه في زيارتها الشهرية ، فاذا هو يسسح عن وجهه كل اثر للكآبة ، ليستقبلها ببقية من ذلك الوجه المشرق القديم •• ثم يأخذ معها في حديث هادىء عن جمال المستقبل ، ولا ينسى ان يؤكد لها شعوره القوي بالتقدم المطرد في صحته ، ثم لا يغفل عن سؤالها عن كل من أخواته الثلاث ، وهو يسبغ علــى كــل منهن لقبها المحبب •• انه يريدهن ناشطات ضاحكات للحياة ، ويريد من امه ان توفر لهن كــل ما يعوزهن في حدود مرتبه ، الذي يأمل ان يزيد في العام القادم ••

وقلما انتهت هــذه الزيارات دون ان يتخللها الكلام عن الجيران ، ودون ان يحمل امه الكثير مــن التحيات لأترابه ولرفاقه في الدراسة •

وكما يخلع الممثل رداء المسرح في النهاية ، ليعود الى حقيقته ، هكذا يعود صلاح الى طبيعته العابسة ، بمجرد

ان تتجاوز امه مدخل القاعــة ، فاذا هو يتنفس عن زفرة طويلة، وهو يشيعها بنظراته الحزينة حتى تغيب عن عينيه..

وكان اهم ما يشغل بال صلاح ترقب نتائج الامتحان. ففي صدره من ذلك قلق يتفاقم كلما اوغلت ايام الصيف في التتابع .. انه يتشوق الى هذه النتائج في صبر يوشك ان يتهدم ..

وبديهي ان يقلق لهذا الامر ، فهو يعلم ان عودته الى عمله في المعهد موقوفة على هذه النتائج .. وشد ما يخيفه ان تنحدر نسبة النجــاح بين طلابــه الى المستوى الذي يتوقعه ، فان ذلك معنــاه انهيــار كل رجاء له في تنفيذ خطته .. وهو لا يستطيع ان ينسى ان دروسه هذه السنة لم تكن مما يبعث على التفاؤل ، وبالرغم من انه ــ في نظر نفسه ــ بريء من كل تبعة ، فما كــان بقادر على تجاهل الواقع الذي سيحمّله التبعة كلها ..!

ان ستا وثلاثين ساعة من الحصص الاسبوعية لا تدع لصاحبها اي مجال لاحكام عمله وتنسيق مجهوده، في شكل يضمن تأثيره في اذهان الطلاب ، وهو لــم يكتم ذلك عن المدير .. ولكن هذا ما كان ليفهم ما لا يريد ، اذ كان كل غرضه ان يختصر ما استطاع من نفقة العمل ، ثم كان من تدبيره العجيب ان يملأ صفوف الشهادة بكل طريد سدت

في وجهه المدارس الاخرى ، غير عابىء بما وراء ذلك من اضطراب في العمل واخفاق في النتائج .. ولقد طالما الح عليه ان يقف عملية الترفيع المزور ...، ولكـــن المدير كان في واد وصلاح في واد ، وهيهات ان تلتقي رغبة الواجب بشهوة المكاسب .!

وعلم صلاح باذاعة تنائج الامتحان فراح يرمق مدخل القاعة مرهفا سمعه لكل حركة من فناء المصح ، حتى اقبل عليه الممرض يحمل بعض الصحف ، وما كاد يفض احداها ويرى الى نبأ الامتحان حتى جعل يلتهم السطور في نهم . وانتهى الى قائمة المعهد .. وشد ما طرب لما قرأ هناك !.. لقد بلغت نسبة النجـــاح خمسين في المئة مـــن مجمـــوع المتقدمين باسم المعهد وهي نسبة جيدة اذا ما قيست بمعظم نتائج المعاهد الخاصة ..

اجل ان الامر لم يخل من تزوير ، فهو يعلم ان طلاب الشهادة في معهده يبلغون بالضبط مئة وعشرين ، وهؤلاء الناجحـــون عشرون ، فالنسبة الصحيحـــة اذن هي دون السبع عشرة ، ولا شك ان المدير لم يرض ان يتقدم جميع المرشحين باسم المعهد ، فاختار افضلهم اربعين طالبا ، ثم ترك للآخرين ان يتقدموا كطلاب احرار . على ان هذا لم يكن غير ما توقع ، وعلى المدير وحده تقع التبعة ، ولهذا

بات يترقب وصول رسالة المدير لمفاوضته علـى استئناف العمل •

وكان توقعه في محله ، اذ لم يأت عصر اليوم التالي ، حتى كانت الرسالة في يده •• ولكن لهجة المدير لم تكن مما يطمئن ، فقد ابى الا ان يحشوها بالتذمر من نتيجـة الامتحان ، ثم لم يخلها من التلميح برغبته في تغيير بعض المدرسين ، وهو ان لم يذكر شيئا عن صلاح فقد كان على صلاح ان يفكر طويلا في هذه الاشارات ، وان يسرع الى تلبية دعوته لمواجهته قريبا ••

❋ ❋ ❋

لقد فرض الواقع على صلاح ان يعبىء قواه جميعا هذه السنة ، فالساعات ارتفعت الى خمس واربعين ومواد الدرس تعددت حتى تناولت الى جانب الرياضيات والعربية والاخلاق التاريخ وعلم النفس والديانـة ••• واذا كان ميسورا له ان يعتمد على تحضيراته السابقة في الحصص الاولى ، فهو ملزم ان يكب علـى دراسة المواد الاخرى من جديد دراسة موسعة تمكنه مـن استخلاص الاسس الصالحة لدروسه ، ولم يعد الامر عنده امر واجب فقط ، بل هو امر ضرورة لا مناص منها ، لكي يتجنب الاخفاق

الذي من شأنه ان يجعله اضحوكة في عيون طلابه .. ثم عليه فوق ذلك ان يتفرغ لأعمـال النظارة ليل نهار وهي وحدها جديرة بمجهود كامل ..

والحق ان صلاحاً لم يختر هـذا العدد الكبير من الحصص رغبة في زيادة خمسين ليرة على مرتبه السابق.. فذلك امر كان يؤثر تجنبه لو ترك له حق الاختيار . ولكن المدير الذي علم بكـل ظروف الفتى القاهرة ابى الا ان يستغلها الى ابعـد حد ، فجعله من امره امـام مخرجين لا ثالث لهما : قبـول الحصص جميعاً او رفضها جميعا ، وما كان لصلاح ان يجرؤ على الرفض وهو يرى شبح اهله يطل عليه من كل مكان هاتفا في مسعمه ان يقتحم عقباته الى نهاية الطريق ..

وهكذا ألفى نفسه مدفـوعاً الى توقيـع الاتفـاق الجديد ، وهو واثق من انه يوقع صك إعدامه .. ثم مضى يحضر ويدرس ويلتهـم الكتب ليقيئها في اسماع الطلاب على غير انتظـام .. ولم يعد لديـه متسع للمناقشة فهو يصب دروسه في قالب خطابي دون ان يتيـح لهم فرصة الاستفسار .

ولكن طريقته هذه سرعان ما لقيت القبـول في تلك الصفوف ، اذ أعفت التلاميذ مـن جهد المراجعة وكتابـة الوظائف ، ثم لم يلبث هو ان استمرأ هذا الاسلوب فلـم

يعد يشعر باي اسف كالذي كان يحسه من قبل حين يرى من نفسه النقص في تحقيق الواجب •

ولم يكن رضى المدير باقل من رضى الطلاب ، فهو لا يفتأ يطري جهوده امام زملائه ، وينوه بنجاحه في عمله كلما وجد سبيلا لذلك •• ولكن شد ما ازعجه هذا الاطراء اذ اثار عليه حفيظة هؤلاء الزملاء فراحوا يكيدون له في اوساط الطلاب ، وجعلوا يتغامزون عليه فيما بينهم ، ولم يكن معظمهم راضيا عن احتكاره الاضطراري لكل هاتيك الحصص ، فهم يشعرون انه يزاحمهم على اختصاصهم ويمنعهم حقهم في الاجور ، لذلك وجدوا للتنفيس عن نقمتهم منه ان يرموه بهذا اللقب الكريه (باس بارتو) ولم يفته العلم بذلك فآثر تجنبهم ما استطاع واخيرا انقطع عن الاتصال بهم •••

وكان معقولا ان يستريح الى وضعه المحتوم ، لولا هذه المحنة الجديدة التي فاجأته على حين غرة ، يوم دعاه المدير الى حجرته ، ليطلب اليه ان يختصر من الكلام عن فضل العرب والاسلام، اثناء دروسه في التاريخ والاخلاق• ولم ينس المدير ان يضخم له الامر ، فيذكره ان في الصفوف طائفة غير قليلة من المنتسبين الى حزب لا يريد الايمان بفضل العرب ، ولا يرضى الاطراء لاثر الاسلام ،

لذلك عليه ان يتجنب هذه المباحث ليتفادى ما وراءها من عقبات !. ولكي يجعل لنصيحته اثرها المنشود أقبل يهمس في اذنه مداعباً : « لا تنس ان المصلحة تقضي بمسايرة الجماعة .. »

وحدق صلاح ملياً في وجه مديره ، وهو يسرد عليه نصائحه ، وخيل اليه انه يرى في عينيه الباهتتين شيئاً جديداً لم يفطن له من قبل ، ولا يحسن له تصويراً ولا وصفاً ، ولكنه يحس له وقعاً كريهاً في قرارة نفسه ...

وكان متعذراً عليه ان يستسلم لرغبة المدير في هذا الموضوع ، فهو بالرغم من كل الضرورات التي افسدت عليه الكثير من مثله الاخلاقية ، لا يجد نفسه قادراً على التنكر لهذه الحقائق ، ارضاء لشهوة او مصلحة .. لذلك لم يستطع الاجابة على حديثه ، ولم يفكر بادخال اي تعديل على طريقته .

ولكن للظروف احكامها الجائرة ، فسرعان ما وجد نفسه مضطراً الى اسلاس جماحه ، عندما دخل ذات يوم الى أحد الصفوف فقرأ على السبورة بالخط العريض هذه العبارة : (خلصونا من العرب .. خلصونا من الاسلام .) فأدرك ان ثمة انذاراً بحرب يشنها عليه القوم من وراء الستار ..

على ان المدير مـا كـان ليرضيه ان يتجنب موظفه مواطن الكلام عن العرب والاسلام فقط ، بـل هو يريده على ان يتخذ لنفسه موقفاً سلبياً ، فيكذب على التاريخ ، ويحرف حقائقه ، فيمحو من صفحاته مثلا أسماء خالدوابي عبيدة والمثنى ، ليثبت مكانها اشباح أدونيس وعشتروت وسميراميس ، ثم يريده ان يزيل من خريطة العالم الحي ، اذا امكن ، دمشق وبغداد وغرناطة •• ليقيم على انقاضها اطلال بعلبك وعمريت وأوغاريت •• واخيراً يريد منه ان يمسح بيده كل قيمة لأدب العرب ولغتهم وثقافتهم ونظمهم، ليتغنى الطـلاب فقط بأنـاشيد الفينيقيين والسومريين وغيرهم من اطياف الاساطير الوثنية ••!

وعز على صلاح ان تهدر انسانيته في عين مديره الى حد ان يصبح اداة مسخرة لأهوائه،فاكتفى بموقفه الحيادي على مضض •• ولم يتعرض للطرف الآخر من الموضوع بخير او شر •• ومن هنا تفجرت النكبـة ، وبدأت مشاكسـات الطلاب ، واذا هو اخيرا مبلبل الخطأ ، مضطرب الذهن •• وما لبث ان عاوده الانتكاس ، وتضاءلت مقاومته ، ولم يعد من فائدة للعلاج الذي لم ينقطع عنه قط ، فاضطـر الى ان يلزم فراشه في مهجع المدرسة عددا من الايام ، ثم جعل يتخلف عن الدروس بين يوم وآخر مما دفع المدير الى تنبيهه ، ثم الى انذاره بالحسم عن كل ساعة يتخلف فيها عن العمل مهما

تكن الاسباب .

وكان ايار قد أقبل بتباشير الرحمة ، واصبحت فرصة الصيف موشكة ان تشرق على ظلمات صلاح ، فتماسك امام هذا الضغط ، وجعل يواظب على القاء دروسه غير عابىء باثقال الداء الذي بدأ يحطم صدره ويمزق رئتيه ..

ولما اغلق المعهد ابوابه في مطلع حزيران اخذ صلاح طريقه الى مصفه المعتاد من مصح بحنس .

* * *

لم يهتم صلاح هذه المرة برأي طبيبه ، ولم يعتذر اليه عن اخلافه الوعد الذي قطعه على نفسه في الصيف الغابر ، ولما بادره هذا باللوم على اجهاده الكثير ، لم يجد لديه من رد سوى هذه العبارة الحاسمة : « لا بد مما ليس منه بد! »

وكان من الغريب المفاجىء ان يحدث انقطاعه عن العمل رد فعل سريع ما لبث ان ظهر جليا في جسده كله ، فهو ما كاد يستقر اسبوعين في كنف المصح حتى هاجمه الهزال بقوة ، ثم ما هي الا ايام قليلة اخرى حتى انقلبت سحنته انقلابا تاما ..

اصبح منظره مخيفا . لقد انطفأت شعلة الحياة في عينيه

النجلاوين السوداوين ، فهما في وجهـه المعروق الاصفـر كالحفرتين المملوءتين ترابا • وتجعد جبينه الذي كان غضا مشرقا فبدا كالشيخ الهرم ، حتى لا يصدق الناظر اليه انـه امام فتى في الرابعـة والعشرين ، وضمر بطنه فهو تحـت اضلاعه اشبه بكيس المطاط أفرغ من الهواء ••

ولعل صلاحا كان متوقعا كل هذه التطورات من قبل ، فهو من اجل ذلك لم يعرج في طريقه على أهله ، وتجاهـل رغبة والدته في حضور زفاف شقيقته الكبرى الذي تأخـر بانتظار قدومه ، ثم اكتفى بان يوجه الى امه كتابا يزعم فيه انه شخص الى العراق للبحث عن عمل احسن ••

ولبث كالمحكوم بالاعدام ، ينتظر ساعة التنفيـذ بين اليوم واليوم ، ولكن انتظاره استطال اكثر من شهر ونصف ، وقد انطلقت اثناء ذلك حرية الجرثوم في صـدره ، ووقف العلاج عاجزاً عن التأثير ، فمضى يلفظ رئتيه دفعة تلو الاخرى ، ولصق بفراشه فلم يعد قادراً على مزايلته •

وأقبل الطبيبان يفحصانه بدقة ، ثم أمرا به فنقـل الى حجرة منفردة •• وفي اليوم التالي سمع صوت والدتـه وأخواته من حوله ، ثم سمع صوت شاب معهن علم انه صهره المعلم •• فأدرك كل شيء ••

وحاول صلاح ان يبتسم لأمه ، التي انحنت عليه تقبله في صمت ، واحس دموعها الساخنة تساقط على وجنتيه .. ولكنه لم يستطع حراكا ، فاكتفى بان يردد في مسمعها رجاءه ان تتشبث بالصبر ..

ولقد آلمه ان يسمع بكاء شقيقته سعاد الصغيرة ، والا يستطيع كفها عن ذلك ، فطفت على جفنتيه دمعتان كبيرتان ..

وفي هذه اللحظة فتح باب الغرفة ، ودخل احد الممرضين يحمل رسالة باسم صلاح ، وفض صهره الرسالة ، ثم ما لبث ان دسها في جيبه باشمئزاز ، غير ان صلاحا كان واعياً لما حوله ، فطلب الى صهره ان يقرأها عليه ، وألح في طلبه ، ولكن صهره رفض في لطف ، واكتفى بان يذكر له : انها تحمل اليه مبلغ مئة وخمسين ليرة من مرتب تموز !..

وهنا فقط استطاع صلاح ان يبتسم ، ثم تمتم في خفوت : « لقد فهمت .. ان المدير يحسم علي نصف مرتبي مقابل الساعات التي عجزت فيها عن الدروس .. أليس كذلك !!.. »

وسكت الصهر ، وهو يمسح جفنيه في حركة عصبية ، واستأنف صلاح كلامه ، وقد توارت نبراته المتقطعة في غلالة كئيبة : « لا بأس .. اكتب اليه .. ان صلاحا قد اصبح غنيا عن مالك .. لقد انتهى . »

قصة دار

كنت بين المكلفين لتحرير النفوس في عدد من قرى النصيرية يوم جرى الاحصاء العام لسكان الدولة السورية عام ١٩٤٨ . وكان يوما تذوقت جماله . بالرغم مما قاسيته من مشقة الانتقال بين الشناخيب وفي المسارب المملوءة بالحجارة والاشواك والاقذار والغبار . اذ أتاح لي فرصة للوقوف عن كثب على حياة هؤلاء السكان في بيوتهم . وللاتصال المباشر بكل هؤلاء الناس الذين قلما يتصل بهم أحد . وفيهم من لم ير المدينة . وفيهم من لا يفقه من هذا الاحصاء سوى انه وسيلة جديدة الى ضرائب وتكاليف يتمنون لو يتفادونها بكل ما وسعهم ..

وانتهى بي المطاف وفق ارقام المنازل الى بيت كان أولى بأن يعتبر نقطة البدء في الاحصاء لو جرى الترقيم على أساس معقول . ذلك لأنه كان أول دار مررت بها مطلع النهار . فاضطررت الى أن أجعله آخر الدور . وقد كلفني ذلك مشقة

التسلق من اسفل الوادي الى أعلى الهضبة ، ولكنها كانت مشقة سائغة ، اذ يسرت لي كذلك ان استمتع بمشهد الغروب في هذه المدرجات الملونة . حيث تنحل اصباغ الشمس على رؤوس الحور في بطن المنحدر ، كما تذوب أشعتها اشلاء مبعثرة على أجزاء الصخور الجاثمة في رؤوس الهضبات المتقابلة ..

وتلقاني على مدخل الفناء المسور من البيت شاب في العقد الثالث ، أبيض البشرة ، أشقر شعر الحاجبين والشاربين ، يفيض جسمه المستقيم المعتدل حياة ورشاقة ، وتذوب عبارته الخجلى رقة . ومضى بنا الى غرفة مبنية من الحجارة المزدوجة تعلو بجانب الفناء بضع درجات من سلم حجري مرتجل ، ولكنه نظيف كنظافة البيت كله ، تلك النظافة التي لفتت نظري منذ أطللت على ذلك الفناء .

واجريت التحرير المطلوب لأفراد البيت الخمسة في سرعة ، وفي نيتي ان أغادر القرية الى الطريق العامة ، حيث تواعدنا نحن المكلفين أمر تحرير هذه المنطقة على انتظار السيارة التي ستقلنا الى المدينة ، ولكن الفتى أبى علي ان أترك داره بعد هذه الساعة، وأعانه أبوه الشيخ على اقناعي بالمبيت عندهم ، وما كنت شديد الرغبة في استعجال العودة الى المدينة بعد ان أنهكني التعب طوال اليوم ،وبيني وبين الطريق العامة وهدات عميقة ونجود ساحقة ، تتطلب قوة

وصبرا . فاستجبت الى دعوتهما ووضعت عني ثياب النهار الغارقة في الغبار . لأرتدي المنامة التي اعددتها في حقيبتي الصغيرة • ولما جاءت بنت الشيخ الصبيـــة بطبق الطعـــام جعلتُ عليه ما صحبته من الخبز والجبن وعلب القديد ، وأبوا علي الا ان آكل من طعامهم ، وابيت الا أن أضـــع أيضاً طعامي ، ولم يكن قراهـــم مما يثير الشهوة ، اذ لم يكونوا على استعداد لضيافتي ، فهو بضعة أرغفة من خبز التنور الاسمر ، لا بل الازرق ، الى جانب صحفة من المتبلة وأخرى من القريش ، مع قليل من البصل والبيض المقلي ، ولكنه كان شهي الطعم كما لو كنت أتناوله في نزهة •

وكان لا بد لنا من حديث ندفع به السأم قبل النوم ، فذكرت لهم طائفة من حوادث المدينـــة التي تشبـــع فضول القروي ، ثم رأيتني مضطراً الى ســـد بقيـــة الوقت ببعض الاشياء التافهة الاخرى ، فاظهرت للقـــوم اعجابي بدارهم التي هي اقرب الى دور المدينة ، وأبعد شيء عن هذه الدور التي مررت بها أثناء جولتي النهارية •

والحق أن اعجابي كان شديدا بهذا البناء ، فهو بالرغم من كونه من الحجر المزدوج الساذج ، كغيره من أبنيـــة القرى المطلية بالطين الابيض ، فيه ظاهرة جديدة لم اعهد مثلهـــا في بيوت هذا الجبل ، هي ظاهـــرة الترتيب الذي يدل على

ذوق متحضر •• فهناك السور وهو قلما تراه حول بيت قروي ، ثم حديقة تظللها بضع أشجار فتية من الازدرخت والدراق البلدي ، ثم غرف ثلاث ينتظمها صف واحد تنتهي بسطبخ ودورة مياه ، وهي أندر شيء وجوداً في منازل القرى ، التي لا تعدو غرفة واحدة كبيرة قل ان يكون لها نافذة ، ويسكنها مجموعة من الحيوان ، الى جانب مئونة هؤلاء وهؤلاء ، فيكون منزلا واسطبلا ومخزناً في آن واحد •

ورضي الشيخ عن هذا الاطراء لبيته وكأنه قد أثار ذكريات عميقة في نفسه ، فقال بعد ان نفض رماد دخبنته على حافة طبق الطعام : « ان لهذا البيت قصة ربما اعجبتك أكثر منه • »

ودافعت النعاس بتثاؤبة حجبتها براحتي ، ثم طلبت الى الشيخ ان يحدثني بقصته لا رغبة في القصة ، ولكن ايناسا له ولأشعره بشيء من الاهتمام بكلامه ••

* * *

وتهيأ الشيخ للحديث فسوى جلسته ، واستند الى الجدار طاوياً احدى ركبتيه تحت مرفقه ، وقد لمعت لحيته

الصغيرة الصفراء في ضوء المصباح الخافت ، وبدا في عينيه الضيقتين المستديرتين بوادر تأثر بعيد ، ربما كان مزيجا بشيء من الاستخفاف . ولاح لي في تلك اللحظة مدى الشبه الوثيق بينه وبين ولده الذي كان أشبه بصورة مكبرة له ، فهو لا يختلف عن ابنه الا بصغر جسمه الذي قلصته الشيخوخة ، وبهذه الغضون المنضدة على جبينه الصغير خطوطاً منحنية متتابعة .

قال الشيخ محمود : « لقد اشتريت هذه الارض بخمسين ذهباً ، مع تلك البقعة المحيطة بالبيت ، وكان ذلك قبل ثلاثين عاماً ، عندما كنت في الاربعين ، املك من قوة النشاط ما جعلني موضع الاعجاب والحسد من شباب قريتي . لم أكن أعول يومذاك على مال أبي أو رزقه ، على سعته بالنسبة الى أرزاق القرية ، فاعتزمت ان أنشيء مثل الذي انشأ ، وان اعمل كما عمل ، فاشتغلت بالحصاد في حقول حماة ، وعملت في حراثة حقول الاغوات ، وضمنت بعض الحقول أزرعها لحسابي ، حتى تيسر لي جمع ستين ذهبا حرمت نفسي الكثير من حاجاتها في سبيلها ، وأول خطوة أتيتها لتحقيق آمالي القديمة شراء هذه الارض .. ولكني لم اكتب وثيقتها باسمي بل باسم والدي الذي كنت به باراً . واخذت أعد عدتي للخطوة التالية باقامة البيت ، وحفرت الأساس ، وهيأت الحجارة ، ولكن سرعان ما حدثت

القصة فأكرهتني على تأخير مجهودي برهة أخرى من الزمن ..

حدث ذلك قبل عشرين سنة ، وكان لي اخت قد تزوجت رجلا من القرية فقيرا ، اولدها أربعة اولاد ، فلما اشتد عليهم البؤس لم تجد سبيلا الى دفعه الا بالسطو على مال والدها ، وهكذا جاءتنا ذات مساء ، ولما غادرتنا في الصباح كان في جيبها ثماني ذهبيات عثمانية ، سدت بقسم منها بعض الديون ، وتداركت ببقيتها مئونة الشتاء ..

وعرف والدي ذلك بعد أيام عندما احتاج الى صندوقه، واخبرني بالامر ، يريد الوقوف على رأيي ، فاشرت عليه بالتسامح في ذلك ، وان يعتبر هذه الليرات الثماني هبة لاحفاده ، ما داموا بحاجة اليها ، وما دامت تقاليد الجبل تحرم البنت من ميراث والدها ..

واقتنع والدي برأيي ، ولكنه كان مضطرا بحكم التقاليد الموروثة الى اطلاع الآغا على الحادثة . فمضى اليه في اليوم التالي ، وهناك كشف له عن الامر ورأيي فيه ، ويظهر ان الآغا قد وجد في هذه الحادثة مدخلا للانتقام من صهري الذي كان الآغا متنكرا له بسبب خلاف على ارض ، أراده على ان يتخلى له عنها فأبى وأصر على ابائه ، على الرغم من التهديد والوعيد . لذلك سرعان ما حمل والدي

على اقامة الدعوى ضد صهره متهما اياه بسرقة خمسين عثمانية •• ورُتبت الدعوى على هذا الوجه ، وكان لا بد من بينة تدعم هذا الاتهام فبعث الآغا بطلبي ، وهناك استقبلني بقوله : « ولك •• يجب ان تشهد على صهرك انه سرق خمسين عثمانية من صندوق أبيك •• فهمت ولك! • »

وأمر الآغا كما تعلم واجب التنفيذ لا مجال لمخالفته •• ولكني مع ذلك لم استطع الا ان أجيبه بان الذي أعرفه غير ذلك ، وليس بوسعي ان اشهد بغير الحقيقة ••

وكان ردي هذا تهجما على قداسة الآغا غضب له كل من كان في مجلسه يومذاك ، وانتهى الامر بقذفي خارج المنزل •• فلملمت نفسي وانا اسمعه يقول : « الويل لك•• اذا فعلت غير ما أمرتك ! •• »

وتلقيت مذكرة الدعوة للشهادة ، وهبطت المدينة يومئذ ، ولقيني في دار الحكومة ابن الآغا يعيد علي قول والده : « لازم تشهد مثلما أمرك ابي • »

قلت : لا والله •• بل الحقيقة التي عرفتها من أبي ••

ولم يتمالك الآغا الصغير فاخذ يشد بردائي وهو يصيح : «وحق الشيخ علي سلمان لأحرقنَّ بيتك اذا •• »

ولكني أجبته « نارك اهون من نار الله •• وحق الشيخ بدر لا ابيعك آخرتي بمال الارض •• »

ودفع والدي ليقنعني بأمر الآغا . وذكرني بسطوته وغضبه الذي قضى على الكثيرين قبلنا . ولم ينس ان يذكرني بان الحكومة كلها بيده . وان الحكم الذي يريده هو الواقع على كل حال . حتى ولو سحب هو دعواه . ولو ادليت انا بالشهادة التي أريدها ••

على ان ذلك لم يزدني الا اصراراً حتى اضطررت الى اغضاب والدي وتلقي لعناته ••

ونودي على والدي فكرر ما لقنه وما كتب على لسانه ، ودعيت للشهادة فكذبت الدعوى بأجمعها ، وبينت العوامل التي احيطت بأبي فدفعته الى تغيير الوقائع ••

وكانت النتيجة براءة صهري ، ولكنها كانت قضاءً مبرماً علي وعلى والدي معاً . فقد خضع والدي لارادة الآغا مرة ثانية وتنازل له عن كل أملاكه ، ومنها هذه البقعة التي انت فيها الآن ••

ولقد كان من العبث ان اطمع باستردادها من الآغا لو لم ادفع له خمسين عثمانية . وهكذا اشتريت هذه الارض

مرتين ، واقمت عليها هذه الدار ، بعـــد ان خسرت حقي في مال أبي الذي اسلم الروح وهو يعض أناملــه ندمــا على ما فعــل ••

* * *

•• واطرق الشيخ محمود قليلا سابحا في غمرات الماضي، ثم رفع رأســه ومضى يمص آخر نفس من طرف دخينتــه المحتضرة ثم قال :

« •• ومع ذلك فانا غير نادم على شيء •• اذ لا ازال موقنا انني لم أعمل الا ما كان يجب ان اعمله •• »

قبر مجهول

حدثني صديقي قـال :

« كان ذلك قبل عشر سنوات يوم حالفني التوفيق بأن عينت مساعدا لأحد مراسلي شركة التبغ في موسم القطاف ، فكانت فرصة جميلة هيأت لي ان اعرف الكثير عن حيـاة الناس في قرى الجبل النصيري وصلتهم بالموظفين .

كنا كثيرا ما نجتمع في اعقاب العمل اليومي : المراسل ومدير الناحية وبعض رجال الدرك وانـا ، يضمنا صيوان متواضع أمام أحد منازل القرية ، وغالبـا ما يكون بيـت المختار ، فنتناول خير ما ينتجـه القروي من بيض ودجاج وجوز ، مما لا يتاح له ان يراه على مائدته الا في مثل هذه المناسبة ، ويستمتع اصحابي بالصافي الرائق من عرق العنب يكرعونه في أوان لا يضمها نظام ، فهذا يحسوه مـن قدح بلوري أنيق ، وذاك يجرعه من فنجان قديم ، وذلك يشرب من طاس نحاسي ضعضعته معارك الايام في اوقات متطاولة .

ويدور الحديث حول حقول التبغ ، ويتوالى الكلام عن الجدب والخصب ، ومن وراء كل كلمة امل بتخفيض أو وعد بمساعدة ، او اشارة الى منفعة لا تلبث ان تتبخر في اليوم التالي ، او تتجسم حقائق بارزة في تقدير يجعل المئة خمسين والخمسين مئة ، والكلام نقودا او دجاجا او ما شئت من نتاج الفلاحين ..

وكان يعجبني اثناء العمل اليومي تلك الجهود الجبارة من اولئك الفلاحين الذين استطاعوا بوسائلهم المحدودة أن يحولوا الكثير من حزون الجبال سهولا وارفة الظلال . تتعالى في مدرجاتها المنتظمة عمالقة الحور والبلوط ، مضطجعة في احضانها عرائش الدوالي رشيقة مختالة ، تتدلى عناقيدها المختلفة الالوان هنا وهناك ، كأنها عقود الماس متوهجة في اشعة الشمس .

واجتذبتني بوجه خاص من تلك الحقول مجموعة من المدرجات منسقة على جانبي واد في احدى هذه القرى كأنها الجنائن المعلقة . وكنت اعرف صاحبها الشيخ يوسف ، وهو رجل عاد حديثا من المهجر الاميركي حيث قام بجولة قصيرة بين الجالية من عشيرته ، جمع خلالها ثروة مجهولة ولكنها كبيرة فيما يقال ، من هبات اسالت لعاب الكثير من امثاله الشيوخ فزينت لهم السفر الى

المهجر ، ليظفروا بمثل هـذه الزكوات التـي لا يحلمون بمثلها في جبال النصيرية •• وقد اتاحت له هـذه الثروة نفوذا لم يتمتع به من قبل ، اذ جعلته سيد القريـة يوجه مشاكلها ويزوج بناتها ويتصرف بسكانها تصرف المالك ، وبخاصة في مواسم الانتخاب • وقـد استطاع ان يحرز رضوان سيد العشيرة التي ينتمي اليها مع قريته بما قدم اليه من زكاة ضخمة يقال انها بلغت خمسة آلاف ليرة ، فكان له من ذلك وهذا سند مضاعف القوة لا يقتحم معقله ولا يرتفع صوت بوجهه ، وهو لم يغفـل شأن الموظفين فجعل من بيته منتدى لهم ، يجدون فيه طعامهم وشرابهم ومنامهم كلما خرجوا في مهمة ، ثم يحملون هدايا صاحبه من التبغ المفضل والدجاج المعد للضيوف • وكـان هذا كافياً لينشر سلطانه في القريـة ، ويشيع هيبته في نفوس سكانها ، الذيـن اصبحوا واثقين ان الشيخ يوسف هو الحكومة بمالها من درك وقضاة وموظفين ••• وان كلمة منه تعمل ما لا تعمل دساتير الدولة وقوانينها جميعاً •

* * *

وكنا ساعتئذ فـوق شرف مطل علـى حقول الشيخ يوسف المخصصة للتبغ ، وقد نهضت شجيراته في جوانبها خضراء وارفة تتكاثف اوراقها في انتظـام بديع ، وتتماوج

اعطافها تحت نفحات النسيم الناعم ، حتى ليخيل اليك انك في مرقص رحب تتمايل فيه هيف الخصور في سواعد الماجنين مائجة على انغام الموسيقى ..

ولذ لي أن أهنىء الشيخ على هذه النعمة الغامرة ، تتجلى في هذا الخصب الذي يميز حقوله كلها على سائر حقول القرية ، وان اهنئه بوجه خاص على هذه العناية التي يصرفها على حقوله فتثني عليه بكل هذا الخير .. ولكن الشيخ لم يظهر اهتمامه بكلامي ، وتشاغل عني بالمراسل يقص عليه ما رآه في مزارع اميركة ، وما تهبه الحكومات هنالك لمزارعيها من تشجيع ومنح وتساهل في شئون الضرائب ، يشحذ عزائمهم لاستثمار الارض واستخراج دفائنها ..

وأحسست من وراء سكوته عن كلامي شيئاً ما لبث ان بعثني على البحث ، فسألت فلاحا بجانبي عن مصدر هذه الجهود التي اخصبت تلك الحقول ، فجاءني الجواب مختصرا ولكنه مثير للفضول ...

لقد علمت من ذلك الفلاح ان الشيخ قد ورث هذه الارض عن ابيه الذي توفي قبل عام ، فليس له ادن في خصبها هذا من فضل . واستغربت ان تكون جميعها ملكا

للشيخ يوسف ، وانا اعرف ان له اخوان ثلاثاً لا بد ان يستغرقن معظمها •• وتجرأت فسألته عما اذا كان قد اشترى حصص هؤلاء الشريكات في تركة ابيه ، ولكن سرعان ما اجابني في لهجة ملؤها الايجاز والتململ :

« نحن لا نورث بناتنا » !

وكان لهذا الجواب الابتر اثره البالغ في اثارة فضولي فوجدتني اتتبع قصة هؤلاء الاخوات ••

* * *

ترك الشيخ ابراهيم ، غير ولده يوسف هذا ، ثلاث بنات هن : سعدى وفضه ونديدة ، وكانت الاوليان قد تزوجتا في حياة والدهما ، ولكل منهما الآن عدد من البنين والبنات ، ولزوجيهما مقدار لا بأس به من الارض والماشية تقوم باود الاسرتين بشكل يدفع عنهما الفقر والجوع • اما نديدة ، وهي أجمل الثلاث ، فقد جنى عليها جمالها ، اذ كثر خاطبوها ، ولكن اباها كان يغلو في تقدير (البرطيل) الذي تجعله التقاليد الجبلية حقاً للاب ولكبير الاخوة من بعده •• ولم يكن لنديدة من خيار في الامر فرضيت مكرهة بالترهب الذي امتد حتى جاوزت الخمسين من السنين فأصبحت عانس القرية ••

وكان لعزائم البنات الثلاث وجهودهن الجبارة اثرها الفعال في احياء هذه الحقول التي صارت الى الشيخ

يوسف ، فهن اللواتي شيدن لها هذه السلاسل الفضية من الحجارة التي انتزعنها من اجواف الارض ، وهن اللواتي غرسن اكثر هذه الاسراب مــن اشجار الكرمة النائمة في احضان الحور والبلوط والسنديان ، ثم هن اللواتي رفعن اكثر هذه البيوت التــي يملكها اخوهن في القرية ، على مقربة من قصره الجديد ، وقلما كان لاخيهن هذا اثر في شيء من هذه الجهود ، ما دامت التقــاليد القروية تفرض على المرأة ان تقوم وحدها بالاشغال الشاقة ، وتجعل من العيب ، في نظر المجتمع القروي ، ان ينهض الرجل بذلك ليترك لبناته او اخواته فرص الراحة في باحات المنازل ..

ومن الطبيعي ان تحرم سعدى وفضة كل حق في ملك ابيهما منذ اليوم الذي تزوجتا فيــه ، وان يكــون حظ نديدة ان تكتفي من اخيها بالطعام والكساء ، حتى تصير الى الموت او الزوج ..

ولكن نديدة فقدت حتى هذا الحق بعد شهرين من وفاة والدهــا ، اذ سقطت فريسة البرداء ، وطــال زمن مرضها ، فلم يجد اخوها من حاجة لاستبقائها في منزله .. وهكذا وجدت نفسهــا مطرودة مــن بيت اخيها الوارث الوحيد ، كما تجد العظمة نفسهــا ملقاة علــى المزبلة بعد تعريتها من اللحم .. فهي منــذ ذلك اليــوم لاجئة عند

اختها سعدى ، تقوم بنقل الماء وجلب الوقود وصنع الخبز وحلب الماشية ، ما وجدت في جسدها المتهـدم قدرة على السعي ••

غير ان الشيخ يوسف ما كان ليفقد من يبطن لـه الحسد في العشيرة والقرية ، فأقبل نفر منهـم على نديدة وشقيقتها يوغرون صدورهن على ذلك الاخ ، ويقنعونهن بأن لهن حقاً في تركـة الاب ، في وسعهن ان يحرزنه اذا لجأن الى القضاء الشرعي ••

وكان شيئاً جديداً هذا الذي عرفته الاخوات الثلاث لم يسبق لهن به عهد من قبـل ، لذلك اظهرن شكوكهن فيه ، وكانت نديدة هي الوحيدة التي لامست هذه الحقيقة يقينها فاندفعت الى مخاصمة اخيها ، واتيح لها من يرفع قضيتها الى المحكمة ، ثم يصلها بمحام ما لبث ان وجد في هذه القضية فرصة صالحة لغنم جديـد ، فتولى ملاحقة الدعوى والانفاق عليها مقـابل حصة من الارث كتبت له بها وثيقة منظمة ••

ولكـن المحامي سرعان ما اخفق في مساعيه ، عندما رفض مجلس القريـة ان يوقـع لنديدة مضبطة بحصر الارث ، وعندما لم تجد اي رجل في القرية يقف بجانبها لاداء الشهادة ، خصوصا بعد ان تلقت القرية انذار سيد

العشيرة وتوجهاته ..

وجاء يوم المحاكمة فاذا محامي الشيخ يوسف يرفع الى القاضي مضبطة عجيبة تؤكد ان المدعية نديدة هي غير نديدة بنت الشيخ ابراهيم المتنازع على ميراثه ، وان نديدة الحقيقية هذه قد توفيت في حياة ابيها ..

ومهما يكن من امر فقد اضطرت المحكمة الى رد دعوى نديدة والزامها تكاليفها ، ومن ثم الى حصر تركة الشيخ المتوفي بولده يوسف وحده ، وفق شهادة المختارين واعيان القرية .. الذين استجابوا الى امر بعض الشيوخ اثر مؤتمر عقده هؤلاء لبحث هذه القضية ، حيث قرروا ان يحاربوا بكل قوتهم كل فكرة تستهدف توريث البنات ..!

***

وتوقف محدثي قليلا يريد ان يتعرف وقع قصته في نفوسنا ، واغراه انجذابنا اليه باتمام طرفته فقال :

« وها أنذا الآن ، وبعد سبع سنوات تنطوي على ذلك اليوم ... لقد كدت انسى تلك المدرجات الجميلة من حقول الكرمة والسنديان والتبغ ، بل لقد كدت أنسى

صاحبها الشيخ يوسف وقصة اخواته الثلاث ••• ولكـــن القدر أبى الا ان يردني امس الى جو تلك المأساة ، حتى آشهد من اجزائها المحكمة فصلها الجديد الاخير ••

لقد علمت ان نديدة قد حـُملت الى احد مشافي الدولة لاجراء جراحة في صدرها بعـــد مرض عضـــال ، غير ان ضعفها الشديد حـــال دون تحمل الجراحـــة فماتت بين ايدي الأطباء ••

ثم علمت ان الشيخ يوسف قد رفض ان ينقل جثمان اخته الى القريـــة ، فتولت ادارة المستشفى دفنه في قبر مجهول ••

آثار المؤلف

المطبوع

١ ــ فضائح المبشرين	رد على شبهات	نفد
٢ اليوبيل الذهبي	دراسة عن المجتمع النصيري	نفد
٣ ــ المرشد في الادب العربي	بالاشتراك مع بعض المدرسين	نفد
٤ ــ نار ونور	مجموعة شعرية	نفد
٥ ــ من تراث الابوة	مسرحية تاريخية	نفد
٦ ــ قصص من الصميم	مجموعة قصصية	نفد
٧ ــ صور من حياتنا	مجموعة قصصية	نفد
٨ ــ فارس غرناطة وقصص أخرى	مجموعة قصصية	نفد
٩ ــ (الادب العربي) للسنة الاولى من الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة	بالاشتراك مع احد الاساتذة	نفد
١٠ ــ الادب العربي للسنة الثانية من الجامعة		

١١ ــ دروس من الوحي	من مطبوعات (الدار السعودية للنشر)
١٢ ــ قصص وعبر	من مطبوعات (الدار السعودية للنشر)
١٣ ــ مشكلات الجيل في ضوء الاسلام	
١٤ ــ تأملات في المرأة والمجتمع	
١٥ ــ مشاهد من حياة الصديق	
١٦ ــ همسات قلب	مختارات من شعر المؤلف
١٧ ــ قصص من سورية	طبعة ثانية
١٨ ــ مدينة التماثيل	
١٩ ــ قاهر الصحراء	طبعة ثانية صدرت في مجلد واحد
٢٠ ــ ثورة الحرية	
٢١ ــ الكواكب الاحد عشر	
٢٢ ــ قصتان من الماضي	طبعة ثانية

يصدر قريبا

١ ــ صور ومشاعر	
٢ ــ أحاديث قصيرة	
٣ ــ مقالات ومحاضرات	
٤ ــ مسرحيات	
٥ ــ صور من حياتنا	طبعة ثانية
٦ ــ قصص من مجتمعنا	طبعة ثانية
٧ ــ نظرات تحليلية في القصة القرانية	طبعة ثانية

فهرس

